الاتجاهات الفكرية والحضارية
وأثـــرها
فى الكتابة الرسمية الديوانية
فى شتى العصور

* * *

مقـــدم البحث

دكتـور
عبد الله حسين على سليمان

تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

« ربنا عليك توكلنا ، وإليك انبنا ، وإليك المصير » .

وبعـــد :

فيشرفنى أن اتقدم بهذا البحث عن :

« الاتجاهات الفكرية والحضارية وأثرها فى الكتابة الرسمية الديوانية » :

وذلك موضوع قد شغل تفكيرى ، ووجهت إليه كثيرا من اهتمامى ، وبذلت فى بحثه مزيدا من جهـدى ، اذ أن الارتباط الوثيق بين الاتجاهات الفكرية والحضارية وعلاقتها بالمسار الفنى للكتابة الرسمية الديوانية تلك التى تمثل مستوى رفيعا من الكتابة الفنية من شأنه أن يفتح الأعين على حقيقة هامـة تترتب عليها آثار بعيدة المدى فى المجال الأدبى فعلى ضوئها يمكننا تفسير العديد من الظواهر الأدبية وتتبع الاتجاهات الفنية والمذاهب المتنوعة للفنون الأدبية ، وأكثر من ذلك فان رواد الأدب يمكنهم فى ضوء هـذه الحقيقة أن يقودوا سفينة الأدب ويديروا دفتهـا فى انجاهات ملائمة للتطور الفكرى والحضارى وبذلك نضمن لأدبنا العربى حيوية متدفقة ، وتطويرا شاملا ، وحياة خالدة .

وبذلك يتفاعل الأدب مع الحيـاة تأثيرا وتأثرا أخذا وعطاء ، وقد اخترت الكتابة الرسمية الديوانية وركزت عليها لمـا لها من أهمية بالغة فى شتى العصور فهى التى تصدر عن مراكز القيادة والتوجيـه ودواوين الحكم ، وهى تعبر عن أعلى المستويات واعنى بها الطبقة الحاكمة المسئولة عن زيادة الجماهير وقيادتها ولقد

كان كتاب الدواوين هم الرواد البارزون على طريق التطوير والتجويد ، وكان تأثيرهم واضحا جليا فى شتى الفنون الأدبية لما لهم من مكانة سامية ، ومنزلة وفيعة وعلو شأن ، وعظيم قدر ، ولما كانوا يأخذون به أنفسهم من علم ومعرفة وتثقيف وتجويد وتفنن وإبداع. وليس من المصادفة أن يتخير الخلفاء العباسيون وزراءهم ممن برعوا فى الكتابة لكنه العمد والقصد واعتبار النبوغ الكتابى فى أول النظر عند اختيار الوزير فأصبحت بذلك دواوين الإنشاء مدارس يتخرج فيها الوزراء ، وأضحى باب الوزارة سهلا مشرعا أمام النابغين من كتاب الدواوين .

ولقد قامت دواوين الإنشاء بأداء أخطر مهمة وأعظم رسالة فى تاريخ الأدب العربى وذلك بما حفزته من همم الأدباء والكتاب إلى الاطلاع والمعرفة والاشتغال بكافة العلوم والفنون ، وبما أثارته من منافسة بين الكتاب على مختلف طوائفهم ، وتعدد مذاهبهم ، وبما دبجه البراع فى فنون الأدب وبليغ الكلام ، وروائع الأساليب، وبما تحقق من دراسات ممتعة وتأليف بارعة فى أدب الكتابة والكتاب وفنون النثر ومذاهبه ، وبما قامت به من حفظ وتدعيم اللغة العربية وآدابها والابتكار والتجديد فى أساليبها . وبما ظهر فيها من روح جديد اكسبها حيوية وتفاعلا مع أحداث الحياة والمجتمع ؛ وتأثرا بالاتجاهات الفكرية والحضارية السائدة فيه .

وفى الحقيقة أن الحديث عن تأثير الفكر والحضارة والبيئة والجنس وغير ذلك ليس من الأمور المسلمة أو القضايا المفروغ منها : فلقد وجد من يقول بأن الاتجاهات الفكرية والعوامل الحضارية ليس لها قيمة بالنسبة لحياة العرب الفنية وينكر أن يكون لها أى دور ايجابى ومن هؤلاء الشرقيون والمستشرقون . كما أن هناك الاتجاه الصوفى الذى ينكر انكارا تاما أن يكون للبيئة أثرا ما أولى

أو ثانوى ويتمثل هذا الاتجاه عند شارل برنار الذى يفصل الفن فصلا تاما عن أى أثر من آثار البيئة فنراه يقول : « إذا كان الفن هو كما نرى كشفا للغموض الكونى فى لمحة لقائية عبقرية فانه يصبح مستقلا عن كل الظروف المكانية والزمانية فالعبقرية قائمة فى كل مكان وعلى الدوام. ولعل فى كلام القاضى الجرجانى ما يشير إلى ذلك إذ يقول: « وأنت تعلم أن العرب مشتركة فى اللغة واللسان، وانها سواء فى المنطق والعبارة وإنما تفضل القبيلة اختها بشىء من الفصاحة ثم قد تجد الرجل فيها شاعرا معلقا وابن عمه وجار جنابة ولصيق طنبه بكيا مفحما وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من الخطيب فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة ... كذلك فهناك من ينكر أن يكون للجنس أثر فى هذه الظواهر الفكرية والحضارية والفنية وبالتالى فلا يمكن أن تفسر هذه الظواهو على أساس من فكرة الجنس، ونظرية الوراثة نفسها تتضاءل فلا تجرؤ على أن تتحدث عن خصائص جنس بذاته بصفة عامة .

والحقيقة أنه لا يمكن أبدا أن تعيش الأمة العربية بمعزل عن الاتجاهات الفكرية والحضارية الداخلية والخارجية خاصة وأن الأمة العربية ليست بالأمة المنغلقة على نفسها التى تحيطها الأسوار وتكبنفها الحواجز انما هى أمة واضحة مكشوفة مفتوحة قلبا وفكرا ورسالة الاسلام العالمية جعلتها أكثر انفتاحا وأشد اتصالا بأمم العالم تأثيرا وتأثرا وتفاعلا خصبا حيويا وخلاقا .

وكان لابد لى أن أبدأ بمقدمة عن النثر الفنى عند العرب وما ورد من أقوال فى نشأته، وقد تناولت بالبحث الكتابة الفنية فى مفهومها ومعناها وأهميتها وأنواعها . وطرحت قضية عامة للبحث مضمونها : إلى أى مدى ارتبط تطور الكتابة الديوانية بالاتجاهات الفكرية والحضارية فى شتى العصور الأدبية؟ وماذا كان لذلك من آثار فى المناهج الفنية والاتجاهات الأدبية والخصائص المميزة ؟

ومضيت أتتبع هذه القضية فى شتى العصور الأدبية : فى حلقات وثيقة مترابطة متكاملة تتبعت الكتابة الرسمية الديوانية وبينت مدى تأثرها بالاتجاهات الفكرية والحضارية :

فى عصر صدر الإسلام ذلك العصر الذى تكونت فيه أمة وظهرت فيه دولة وفى العصر الأموى الذى وضح فيه التحول وبرز الكيان .

وفى العصر العباسى بعهديه الأول والثانى عصر الحضارة والرقى والتطور والازدهار وفى عصر المماليك والأتراك العثمانيين العصر الذى انتهى فى آخر مرحلة منه بظلام طويل وجمود مرير . وفى الأندلس ، وفى مصر ، وأخيرا فى عصر النهضة الحديثة الذى أخذت فيه أمتنا العربية تنحو نحوا جديدا وتترقب مستقبلا مجيدا . وقد استوفيت نماذج متكاملة تعطى طورة واضحة للكتابة الديوانية فى كل عصر ، كما تعرضت لمشاهير الكتاب وأبرزت المقومات الفنية لكتاتهم وبينت آثارهم فى تطوير النثر الفنى وابداع مذاهبه وكان لابد لى أى أقف وقفة متأنية فى كل عصر لأبين بوضوح وجلاء الخصائص الفنية للكتابة الديوانية وتأثرها بالاتجاهات الفكرية والحضارية . وقد تطلب ذلك جهدا شاقا وبحثا مركزا واعيا بقدر ما أعانى الله ومنحنى من قدره . وقد أنهيت بحثى بخاتمة أوجزت فيها خلاصته ونتائجه من بعدها ثبت بالمراجع من قديم الكتب وحديثها .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب :

دكتور عبد الله حسين على سليمان

مقـــدمة

النثر الفنى عنـد العرب :

النثر هو الكلام الذى لم ينظم فى أوزان وقواف يقول المرزوقى : « مبنى الترسل على أن يكون واضح المنهج ، سهل المعنى ، متسع الباع ، واسع النطاق ، تدل لوائحه على حقائقه ، وظواهره على بواطنه إذ كان مورده على أسماع مفترقة : من خاصى وعامى ، وأفهام مختلفة من ذكى وغبى ، فمتى كان متسهلا متساويا ، ومتسلسلا متجاوبا تساوت الآذان فى تلقيه ، والأفهام فى درايته ، والألسن فى روايته فيسمح شارده إذا استدعى ، ويتعجل وافده إذا استوفى وان تطاول أنفاس فصوله ، وتباعد أطراف حزونه وسهوله .. ومبنى الشعر على العكس من جميع ذلك ، لأنه مبنى على أوزان مقدرة وحدود مقسمة ، وقواف يساق ما قبلها اليها مهيأة ، وعلى أن يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر إلى غيره إلا ما يكون مضمنا بأخيه ... »(١) وإذا كان وضوح المنهج وظهور المعنى ودلالة العبارة على المراد واتساع الباع وتسلسل الأفكار كلها من الأمور التى لاينفرد فيها النثر على الشعر فلم يبق مسلما للمرزوقى مما ذكره من الفروق الأساسية بين الترسل والشعر سوى الوزن والقافية وما يستلزمه ذلك من قيود تحد حرية الشاعر فى التعبير (٢) .

والنثر على ضربين : أما الضرب الأول فهو النثر العادى الذى يقال فى لغة التخاطب ، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية الا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكم

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى حـ ١ ص ١٨ - « طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ » .

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب د. أحمد أحمد بدوى ص ٣٥ .

وأما الضرب الثانى فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه الى لغة فيهـــا فن ومهارة وبلاغةوهذا الضرب هو الذى يعنىالنقاد ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار (١) .وهذاهو النثر الفنى المعتمد الجدير بالبحث والدراسة .

وفى محاولة لالقاء بعض الضوء على النثر الفنى عند العرب أشير الى أن العرب أمة صناعتها الكلام ، ومفخرتها البيان ، فهم أهل لسن وفصاحة يزدهيهم القول وتأخذ بألبابهم البلاغة ، ومن هنا فقد أثر لهم من فرائد الأقوال ونوابغ الأساليب ما يعد من المآثر الخالدة ، فلقد كانت لهم مقدرة على انشاء النثر الفنى الرائع ، وفى هذا الصدد يقول القدماء من علماء الأدب ونقاده : ان النثر الجاهلى كثير ولكن أكثره قد فقد لعدم تدوينه لجهل العرب أو أكثرهم بالكتابة ولذلك قل المروى منه ، فالأدب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخره فى كل أمة ومنشىء الأدب المنثور لا بد له من تدوين ما يخطر على فكره (٢) . ولقد بقى فى بعض صور من النثر الفنى للعرب الجاهليين فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه ، وان كان الكثير من النثر الجاهلى قد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التى لم تكن معروفة إلا للقليل من الناس الذين كانوا يستخدمونها لأغراض سياسية وتجارية لا لأغراض أدبية » (٣) . والسبب فى ذلك يرجع الى أمية العرب وبداوتها وأنها لم تكن أمة ذات حضارة أو ثقافة واسعة ولذلك كان أكثر أدبها إرتجالا وما يشبه الارتجال .. يقول الجاحظ (٤) : .. وكل شىء للعرب فانمـــا هو بديهة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د. شوقى ضيف ص ١٥ .

(٢) الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام للدكاتره حسن جاد وعبد الحميد المسلوت وعبد المنعم خفاجى ص ٧٤ .

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ص ١٩ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ حـ ٣ ص ٢١ ط ثانية .

وارتجال وكأنه المام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه الى الكلام والى جملة المذهب والى العمود الذى إليه يقصد فتأتيه المعانى ارسالا وتنثال عليه الألفاظ إنثيالا وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وهم عليه أقدر وجهروكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع » .

والمستشرقون يرون أن النثر الفنى لم يعرفه عرب الجاهلية ولم يشهده عصر صدر الاسلام وانما نشأ على يد ابن المقفع م ١٤٣ هـ فى صدر العصر العباسى الأول، وممن ذهب إلى ذلك المسيو .. مرسيه .. الفرنسى والمستشرق «جب» الانجليزى وغيرهما(١) .ويؤيد ذلك بعض الباحثين المعاصرين مثل الدكتور طه حسين وأن كانوا يختلفون مع المستشرقين فى تحديد مبـــدأ نشأة النثر الفنى فهم يرون أن الأدب العربى عرفه فى أول القرن الثانى الهجرى يقول الدكتور طين حسين(٢): « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى أن نطمئن الى أن هذا العصر كان له نثر فنى، فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددته ومع ذلك فقد كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن وهذا النثر هو الخطابة ، فأول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية وهو الذى شهد مظهر الحيـاة العقلية وهو نشأة النثر الفنى » .

والحق أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم وحدة تفكيرهم ولكنه ضاع ـ كما قلت ـ لأسباب منها شيوع الأمية وقلة التدوين مع التسليم بأن الكتابة يحتاج إليها النثر الفنى فى تدوينه لا فى نشأته ... لقد وجد

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك حـ ١ ص ٢٣ .

(٢) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٣٠ وما بعدها ، ص ٤٩ .

النثر الفنى إذن قبل الاسلام وقبل إتصال العرب الثقافى بالفرس واليونان بأمد طويل . وأقوى دليل لا يرقى إليه شك ولا يعتريه ريب أن أمة العرب شهرتها ضاربة فى البلاغة والبيان وفنون القول وقد جاءت معجزة الرسول محمد ﷺ من جنس ما برعوا فيه ليكون الإعجاز أتم وأكمل ولو أن بلاغتهم كانت قاصرة على الشعر فحسب لأنزال الله القرآن على رسوله شعرا حتى ينهض التحدى على أساس ولم يحدث ذلك . وهذا معناه أن العرب كانت لهم بلاغة وكان لهم إقتدارا على فنون القول الأخرى غير الشعر .

* * *

الكتابة : مفهومها ومعناها وأهميتها وأنواعها :

الأصل فى الكلام أن يكون منثورا لابانته مقاصد النفس بوجه أوضح وكلفة أقل . وهو أما حديث يدور بين بعض الناس فى اصلاح شئون المعيشة وإجتلاب ضروب المصالح والمنافع وذلك ما يسمى بلغة التخاطب . وأما خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة فى أمر ذى بال وهذا ما يسمى بالخطابة ، وإما كلام نفسى مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم التلفظ به لحفظه للخلف أو لبعد الشقة بين المتخاطبين وذلك مايسمى بالكتابة ويراد بالكتابة عند الأدباء صناعة إنشاء الكتب والرسائل (١) وعند القدماء كان لفظ الكتابة إذا أطلق لايراد به غير كتابة الإنشاء (٢) . وتعد الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأرجح البضائع وأنفعها ، وأفضل والمآثر وأعلاها ، وأثر الفضائل وأغلاها لا سيما كتابة الإنشاء التى هى بمنزلة سلطانها وإنسان عينها بل عين إنسانها وأعظم شاهد لجليل

---

(١) الوسيط لاحمد السكندرى والعنانى ص ٢١ ، ص ٣٤ .

(٢) أسس النقد الأدبى لأحمد أحمد بدوى ص ٥٧٣ .

قدرها وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتدم من وافر كرمه وأفضاله فقال عز وجل .. أقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم « كما أقسم سبحانه بالقلم الذى هو آلة الكتابة فقال .. » ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون «ومن كلام أبى جعفر الفضل ابن أحمد.. الكتابة أس الملك وعماد المملكة واغصان متفرقة من شجرة واحدة، والكتابة قطب الأدب وملاك الحكمة ، ولسان ناطق بالفصل وميزان يدل على رجاحة العقل والكتابة نور العلم وفدامة (١) . العقل ومدان الفضل والعدل » (٢) والكتابة فى اللغة مصدر كتب يقال: كتب يكتب كتبا وكتابا وكتابة ومكتبة وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع يقال : تكتبت القوم إذا اجتمعوا ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ومن سمى الخط كتابة لجمع الحروف بعضها الى بعض قال ابن الأعرابى : وقد تطلق الكتابة على العلم قال تعالى « أم عندهم الغيب فهم يكتبون» أى يعلمون وعلى حد ذلك قوله ﷺ فى كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذا . « انى بعثت إليكم كاتبا » أراد عالما لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علما ومعرفة، وقد حدت فى الاصطلاح بما يجعلها تشمل جميع ما يسطره القلم مما يتصوره الذهن ويتخيله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة والكتابة وان كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصلين هما كتابة الإنشاء وكتابة الأموال إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خص لفظ الكتابة بصناعة الانشاء ، والانشاء هو أصل موضوع الكتابة وهو مصدر انشأ الشىء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعانى فيما يكتبه من المكاتبات أو أن المكتابات ونحوها تنشأ عنه والمراد بكتابة الانشاء كل ما رجع من

---

(١) بمعنى مصفاة .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ج ١ ص ٣٧ .

صناعة الكتابة الى تأليف الكلام وترتيب المعانى من المكاتبات والولايات والمساحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات والهدن والأمانات والإيمان وما فى معنى ذلك. (١) وكتابة الإنشاء تستلزم زيادة العلم وغزارة الفضيلة وذكاء القريحة وجودة الروية .

والكتابة فن من فنون النثر وهى بالمعنى الذى أوردته — معنى انشاء الكتب والرسائل — تعد لازمة لكل أمة متحضرة ذات دولة منظمة ودواوين متعددة ، وصناعات متنوعة ، وفنون مختلفة ، وقد كان بعض ذلك موفورا فى ممالك التبابعة جنوبا ومأثورا عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالا ، ولذلك استعمل الخط المسند الحميرى عند الأولين فى عهد بعيد مديد، والأنبارى الحيرى عند الآخرين . وانما لم يصل إلينا شىء من رسائل تلك الامم ولا من كتب فنونها غير ماعثر عليه فى بقايا خرائبهم وسدود مياههم وبعض دفائن الأحجار والقبور نظرا لتقادم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعد فى بلادها . ولم يعرفنا التاريخ بأحد من كتاب هذه الصناعة الا بلقيط بن يعمر الأيادى ، وعدى بن زيد العبادى وابنه وكانوا كتابا وتراجمة عند كسرى أما أهل البدو من سكان أواسط الجزيرة فمن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الإنشائية إلا بعد أن عرفوا الخط آخر عصور الجاهلية فقد نقل عنهم أنهم كانوا يكتبون فى بدء رسائلهم .. باسمك اللهم « و .. من فلان إلى فلان » و « أما بعد » ولم تقم لهم دولة بالمعنى الصحيح الا بقيام الإسلام فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة (٢) وبقيام الدولة الإسلامية وبروز كيانها وتدعيم أركانها اشتدت الحاجة إلى التنظيم والتخطيط والاهتمام بادارة أعمال

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٥٢ .

(٢) الوسيط ص ٣٧ .

الدولة والقيام بأعباء مهامها المختلفة مما دعا فيما بعد إلى انشاء الدواوين المختلفة وتنظيم العمل بها وتحديد مهمة كل منها ، وكان على رأس هذه الدواوين أهمية ورفعة شأن وجلالة قدر وعظيم أثر ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء الذى تتعلق به كافة الرسائل والمكاتبات الرسمية والديوانية الخاصة بشئون الحكم وإدارة أعمال الدولة وتنظيم شئونها ، وقد كان هذا الديوان فى الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسمية له بأشهر الأنواع التى تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمها ثم غلب عليه استعمال « ديوان الانشاء » واشتهر بهذا الإسم (١) .

ولقد كانت مهمة كتابة الرسائل عن الخليفة وتلقى ما يرد له من مختلف البلاد منوطة بأفراد لا يعملون كهيئة فى ديوان ينقطعون للكتابة ويتفرغون لها وتجرى عليهم الأرزاق بسببها بل كان الأمر فى إنشاء الرسائل والمنشورات والعهود موكول إلى الخليفة أو إلى الوالى نفسه يكتبه بخط يده أو يمليه على من يرسمه بالقلم ويخط فى الورق بين يديه واستمر الحال على ذلك إلى قيام الدولة الأموية حيث اتسعت أطراف الدولة وزادت أعباء الحكم والإدارة فاتجه المسئولون إلى الاستكثار من الأعوان وأخذوا يزيدون فى عدد الدواوين وأنواعها وكان مما زادوه من هذه الدواوين ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء يقوم على تدبيره رجل يحظى بثقة الخليفة ويكون له من الكفاية نصيب كبير فينوب عن ولى الأمر فى تحرير الرسائل والمنشورات وكل ما يحتاج إليه تصريف شئون الحكم من مكاتبات ويوجهها إلى الولاة والعمال فى مختلف الأقاليم والولايات .

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

ولقد ارتبط تطور الكتابة الديوانية بالتطور الفكرى والازدهار الثقافى والتقدم الحضارى فى شتى العصور مما كان له أكبر الأثر فى المناهج الفنية والاتجاهات الأدبية والخصائص المميزة الأمر الذى يؤكد بعمق أصالة أدبنا وحيويته وتحرره من القيود والجمود كما يثبت بما لا يدع مجالا للشك فعالية التأثير والتأثر ، وخصوبة التفاعل الخلاق بين العوامل الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية وارتباطها بالاتجاهات الأدبية ارتباطا وثيقا لا ينفصم ولا يتخلف وهذا ما ينبغى أن يوضع فى الاعتبار وأن يعمل له كل حساب ويكون له كل تقدير .

* * *

الكتابة وخصائصها الفنية وارتباطها بالتطور الفكرى فى عصر صدر الإسلام :

لقد كان زعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كتابا ينشئون بملكتهم ولو لم يخطوا بيمينهم فكان النبى وأصحابه وخلفاؤه يملون كتبهم على كتابهم بعبارتهم ومن انشائهم ، وبعضهم كان يكتبها بيده . وكان من ذلك أيام ظهور الإسلام وأزمان الفتوح والمغازى مئات الرسائل والعهود . ولقد كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدأ ظهور الإسلام هو الخط الأنبارى الحيرى (١) المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازى وهو أصل النسخ ، وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود

---

(١) خلاصة ذلك كما ورد عن ابن عباس أن قريشا أخذته عن حرب بن أميه وهو عن عبد الله بن جدعان أو بشر بن عبد الملك أخى أكيدر صاحب دومة الجندل وهما عن أهل الحيرة والانبار .

فلما انتصر النبى ﷺ على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب قبل الفداء من أميهم ، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فانتشرت بذلك الكتابة بين المسلمين (١) ، وقد حض النبى على تعلمها وتمكن أمرها بعد فتح مكة واجتماع شمل المهاجرين منها والأنصار، فما تم نزول القرآن الكريم حتى كان لرسول الله أكثر من أربعين كاتبا منهم :

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعامر بن فهيرة وخالد سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان وأخوهما سعيد وعبد الله بن الأرقم الزهرى وحنظلة بن الربيع الأسدى وابى بن كعب وزيد بن ثابت وشرحبيل ابن حسنة ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن زيد والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعمر بن الخاص وعبد الله بن رواحه وأبو سفيان بن حرب وكان ألزمهم له فى الكتابة معاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت ومن أشهر كتاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان وهم :

زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ولقد كان النبى ﷺ يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه كما كتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وبث إليهم رسله بكتبه . ولما توفى رسول الله صلوات الله عليه واتسعت الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة إلى الكتابة وقام الكتاب بأعمال الدعوة والدولة فكتبوا القرآن واستخدمهم الخلفاء فى كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة

---

(١) الوسيط . ص ١٢٢ . فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٠ .

والقواد وفى وصاياهم إلى قضاتهم ووسائلهم إلى أهل الامصار وفى كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته فى الحرب والسلم ، وكان الخليفة أو الوالى يكتب بيده أو يملى على بعض الكتاب ولم تكن الكتابة قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث فى عهد بنى أمية وبنى العباس (١) .

وفى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حين اتسعت الفتوحات وكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة إلى انشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين فكان عمر أول من دون الدواوين فى الاسلام وكانت مقصورة على الضرورى منها ..

ومن الدواوين التى دونها :

ديوان الجيش لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم .

وديوان الخراج لتنظيم ايرادات الدولة ومصروفاتها ، وقد عهد الخلفاء بكتابة الرسائل فى الدواوين إلى العرب أو الموالى المتعربين وظلت كتابة الخراج فى الأقاليم بلغة أهل المصر حتى حذقها من العرب طائفة فوكلت اليهم وحولت هذه الدواوين إلى العربية .

وقد ذكر القضاعى فى تاريخه .. عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف « أن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبى أموال الصدقات وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخل وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المدانيات والمعاملات فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضا قد وضعت فى زمنه عليه الصلاة والسلام إلا أنها ليست فى الشهرة وتواتر الكتابة فى زمانه

---

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام ص ٢٨١ .

كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء (١) .

وباتساع الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة إلى الكتابة وقام الكتاب بأعباء الدعوة والدولة وكان لنا من ذلك كم ضخم من الكتب والرسائل والوصايا والعهود والمواثيق والعقود والنصائح والتوجيهات (٢) .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده إذ أصبحت تؤدى تعاليم الدين الحنيف وكل ما أقامته الشريعة الغراء لصلاح الأمة وسلامة الجماعة وما فرضته من علاقات إنسانية ومبادىء إسلامية عند إبرام المعاهدات والمواثيق والعهود وكل ما تتطلبه الدولة الناشئة من نظم ومعاملات وعلاقات وبخاصة فى البلاد المفتوحة وتلبية الحاجات الملحة فيها وتنظيم شئونها وحسن إدارتها وقد اقتضى الأمر نتيجة هذا الاتساع إنشاء الدواوين لضبط موارد الدولة ومصارفها وضبط اعطيات المسلمين وقد تم ذلك فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. وقد عهد الخلفاء بالكتابة فى الدواوين إلى العرب والموالى والمتعربين وظلت كتابة الخراج فى الأقاليم بلغة أهل المصر التى حذقها طائفة من العرب فتحولت الكتابة فى هذه الدواوين إلى اللغة العربية وقد كان ذلك فى عصر بنى أمية (٢) .

ولقد انقضى عصر الراشدين كله دون أن ينقطع للكتابة من يختص بها ويتفرغ لها وتجرى عليه الأرزاق بسببها وذلك بطبيعة الحال غير العدد القليل من الحاسبين والكاتبين الذين كانوا يعملون بديوان الجيش وديوان الخراج

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٩١ .

(٢) أنظر مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله الحيدر أبادى .

منذ أنشأهما الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أما انشاء الرسائل والمنشورات والعهود وما أشبه ذلك مما يحتاج إلى تعبير وبيان فقد كان يقوم به الخليفة أو الوالى نفسه يكتبه بخطه أو يمليه على من يرسمه بالقلم ويخطه فى الورق بين يديه .

* * *

أما عن الخصائص الفنية والملامح المميزة للكتابة فى هذه الفترة فقد كانت الكتابة فى ذلك العهد عهد صدر الاسلام بسيطة فى مظهرها بليغة فى جوهرها يغلب عليها الطبع وترك التكلف والصنعة والتعمل فكانت تمتاز بالسهولة والوضوح والايجاز وتأثرها العميق بأساليب القرآن الكريم والبلاغة النبوية الرشيدة والبعد عن تكلف السجع والزخارف والمحسنات . ولقد كانت الرسائل تبدأ باسمك اللهم ثم يقول الكاتب .. من فلان الى فلان « ويتبع ذلك قولهم » السلام عليكم « أو .. السلام على من اتبع الهدى » ثم يثنون بقولهم . انى أحمد الله اليك » ثم يأتى الكاتب غالبا .. بـ.. أما بعد « ويذكر غرضه الذى يكتب لأجله ويختمها بقوله .. والسلام عليكم ورحمة الله » .

ومما هو جدير بالذكر أنه نتيجة لتطور الحياه وإزدهار الحركة الفكرية فى عصر صدر الاسلام واتساع العقول ورقى الأفهام وغلبة الوعى والادراك فقد أخذت الكتابة تستخدم استخداما واسعا يغطى كل الجوانب التى طرأت على الدولة الناشئة، استخداما تجلى فيه العمق والوعى والدراية والتركيز كما شاعت فيه روح الجدية والبعد عن السطحية والمظهرية وهذه هى طبيعة الدعوة الاسلامية وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها .. وهى على هذه البساطة واليسر قد وصلت الى درجة كبيرة فى الفصاحة والبلاغة وسمو البيان تنبىء عن اصالة وخصوبة ونضج وذوق رفيع واحساس بالغ ونظر لماح ولا ريب فهذا أثر من آثار الله فى قرآنه الذى أعجز

البلغاء وتحدى بفصاحته كل الفصحاء كما أنه أثر من آثار رسول الله فى احاديثه الشريفة التى يقول عنها الرافعى.. هذه هى البلاغة الانسانية التى سجدت الأفكار لآياتها وحسرت العقول دون غاياتها لم تصنع وهى من أحكام كأنها مصنوعة ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة .. »

نعم .. لقد كان ذلك من روح القرآن ومن روح الرسول ومن روح الاسلام : قوة عبارة ودقة معنى خصوبة منطق وبراعة أداء وجزالة ألفاظ واشراق أسلوب وبعد عن التنميق والتزويق وتجنب للغموض والحشو والتعقيد .

فلقد كان للقرآن الكريم آثار بالغة فى لغة العرب وآدابهم وأول ما كان من آثار القرآن الكريم أنه جمع العرب على لهجة قريش وحفظ اللغة العربية من الانقراض وساعد على رقيها والعناية بها ونشرها فى كل مكان ينتشر فيه الإسلام وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة حية خالدة ارتبطت بالدين الإسلامى ارتباطا وثيقا حتى أصبح الحفاظ عليها حفاظا على الدين وصارت العناية بها من ضرورات العقيدة والإيمان ومن آثار القران الكريم فى اللغة كذلك أنه هذبها من الحوشية واللفظ الغريب وأضفى على ألفاظها رونقا وصفاء وبهاء وعلى أسلوبها سحرا وروعة وبيانا كما أسبغ على معانيها الكثير مما لم تكن تعرفه العرب ولا تألف التعبير عنه وهى معان إسلامية جاء بها الدين الجديد وإبتدع لها ألفاظا وعبارات إبتداء وتوسع فى معانيا .. كذلك فإن أسلوب القرآنى بالغ الروعة والبيان قد إحتذاه وسار على هديه الخطباء والكتاب والقصاص والوعاظ والشعراء فكانت آثارهم الأدبية فيضا من هداه وشعاعا من سناه وقبسة من أنواره ولمحة من أسراره وسعيا فى مداره بروعة الأداء وصدق التعبير وجمال التصوير وإشراقة الديباجية ودقة الصياغة وسلاسة العبارة وسلامة التفكير وحسن التعليل وعمق المعنى وجلال المغزى .

كذلك كان حديث المصطفى ﷺ متمما ومكملا لما بدأه القرآن الكريم فى المجالات السابقة التى أشرنا إليها إذ كان له أثره فى تهذيب اللسان وصفاء الجنان وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابة والتعقيد والتكلف وسجع الكهان والأخذ بأساليب السلاسة والسهولة ورونق البيان وبذلك ساعد على رفع منزلة النثر وإعلاء شأنه وهذب أغراض الكتابة وفنونها وربطها بالمثل العليا والغايات النبيلة والأهداف السامية وقد إستمد منه المتأدبون فى رسائلهم وخطبهم ما أضفى عليها الطلاوة والرونق والبهاء فكان بحق موردا عربا للثقافة الأدبية فى شتى العصور .

وخير دليل على ذلك ما أقدمه من نماذج للكتابة فى هذه الفترة :

١ — نموذج من المعاهدة التى كتبها الرسول وأمضاها بينه وبين قريش عام الحديبية : (١) « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردون عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا اسلال ولا اغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعندهم دخل فيه (٢) .

. . .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة : محمد حميد الله الحيدر آبادى ص ١٣ .. ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) العيبة المكفوفة المراد الذمة التى لا تنكث ، والاسلال : السرقة والاغلال : الخيانة .

٢ ـ وهـــذا كتاب من الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم وقد بعث به مع دحية الكلبى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم سلام على اتبع الهدى .. أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

• • •

٣ ـ وكتب أبو بكر الى المسلمين يعهد الى عمر بالخلافة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر : ويتقى فيها الفاجر :

انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت، ولكل أمرىء ما اكتسب « .. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب منقلبون » (١) .

٤ ـ وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى وقد ولاه القضاء (٢) :

---

(١) صبح الأعشى حـ ٩ ص ٣٦٩ . والكامل للمبرد حـ ١ ص ٦ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ حـ ٢ ص ٤٨ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس ، سلام عليك أما بعد .. فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك : البينة على من أدعى واليمين عل من أنكر .. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ... الخ .

• • •

٥ ـ وكتب عثمان رضى الله عنه الى عماله حين ولى الخلافة :

« أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ، فاذا عادوا كذلك إنقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ... الخ .

• • •

٦ ـ وكتب الإمام على رضى الله عنه فى الرد على معاوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من على بن أبى طالب الى معاوية بن صخر ، أما بعد .. فقد أتانى كتابك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فأتبعه ، زعمت أنفة أنما أفسد على بيعتى خفرى بعثمان ، ولعمرى ما كنت الا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى ، وما أمرت فلزمتنى خطيئة الأمر ، ولا قتلت فأخاف على نفسى قضاص القاتل ...

• • •

وهكذا نمضى مع هـذه النماذج المتتابعة لنقرر حقيقة هامـة وهى أن الكتابة الانشائية فى هـذه الفترة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقـا بالتطور الفكرى والنهضة والنهضة الشامـلة التى كانت أثرا من آثار الإسلام و نعمة سابغـة جرت على يديه وصنعت على عينه .

* * *

الكتابة الديوانية

وخصائصها الفنية وارتباطها بالاتجاهات الفكرية والحضارية في العصر الأموى

فى عصر دولة بنى أمية وطوال فترة توالى الخلفاء من معاوية بن أبى سفيان فمن بعده وحين اتسعت رقعة المملكة وقرت أمور الدولة وازدادت الأعمال وشغل الخلفاء عن أن يلو الكتابة بانفسهم أو بخاصة عشيرتهم عهدوا بها إلى كبار كتابهم فتوفروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولتهم أن تصير صناعه عتيدة متحدة الأصول متشعبة الفروع بما أدخله فيها الناشئون من أبناء الكتاب والموالى بعد نقل الدواوين إلى العربية ، وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهى لغات أمم ذات حضارة ومعارف وعلوم ونظام ورسوم .. وهكذا زادت العناية بالكتابة فى العصر الأموى نظرا لاتساع أعمال الخلفاء وكثرة شئون الحكم وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها فى عهد الخلفاء الراشدين :

١ — ديوان الخاتم :

ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوما لايدرى حامله مافيه ولا يستطيع أن يغيره وقد قيل فى سبب انشاء هذا الديوان على ماذكره الفخرى فى كتابه « الآداب السلطانية » أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم فمضى الرجل وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر معاوية ذلك ثم تبين حقيقة الأمر فأمر بوضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة » (١) .

---

(١) الآداب السلطانية للفخرى .

٢ — ديوان الرسائل .

ومهمته كتابة الرسائل التى تصدر عن دار الخلافة ، وقد اتخذ معاوية كاتبه على الرسائل عبيد الله بن أوس الغسانى . وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ، ولقد كانت الرسائل التى تصدر عن هذا الديوان تفيض بيانا وينضرها جمال الأسلوب وسمو البلاغة إذ كان الخليفة هو الذى يتولى املاء الرسائل بنفسه فلم تظهر للكتاب شخصية الا فى عهد أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل إذ كان ينوب عن الخليفة فى الكثير منها ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها .

وكان الطابع العام للرسائل التى تصدر من الديوان أو ترد اليه بساطة المظهر وعدم التكلف فى الخطاب حتى أن الكاتب ليبدأ بتقديم اسمه على اسم من يرسل اليه حتى ولو كان الخليفة ، وظلت هذه الحالة مرعية حتى جاء الوليد بن عبد الملك فانف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه ، ومن هنا أخذت الرسائل سمتا آخر يلائم رغبة الخلفاء ويرضى كبرياءهم ولم يخرج على هذا النهج فيما بعد الا عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل .. (١) .

ومن أهم ما نعنى به فى هذا المجال ديوان الرسائل وما كان يصدر عنه من رسائل بليغة ، أما ديوان الخاتم أو ديوان الخراج أو الجيش فلا نعنى بدراسة آثارها فى هذا المجال ..

غير أننى أحب أن أنبه إلى نوع جديد من الكتابة الفنية استجد للكتابة فى آخر هذا العصر وهو .. الرسائل الاخوانية « التى كان ينشئها الكتاب البلغاء

---

(١) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ص ٦٨ .

فتحمل مافى قلوبهم من مودة واخاء . أوتصور ما يجيش به مشاعرهم من مختلف الخوالج والنزعات أو تعبر عما يتردد فى نفوسهم من أفكار وآراء فى أسلوب جميل وتعبير رصين ولفظ محكم ، وتصوير بارع .

وتقريرا للحقيقة أقول :

ان الكتابة قد ارتفعت رقيا عظيما فى العصر الأموى فقد جد كثير من المشكلات وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية ، وتحضر العرب واقتبسوا كثيرا من النظم الأجنبية وانتفعوا بألوان الثقافات لدى الأمم المفتوحة .

وقد كان اعتماد الحياة العقلية العربية فى العصر الأموى على روافد ثلاثة تتمثل فى التراث الجاهلى بأدبه وشعره وأيامه مما هيأ لتسجيل الحياة الجاهلية ، ورافد اسلامي يتمثل فى تاريخ الاسلام وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم وقيام الأحزاب السياسية وما كان لها من آراء فى السياسة والحكم ورافد ثالث أجنبى يتمثل فى معرفة شئون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والافادة من ألوان ثقافتها ومعارفها (١) واتسع مجال التأثر بما تسرب من الفكر الأجنبى وخاصة من شعب الفكر اليونانى فى الفلسفة والمنطق ، وكان لابد لهذه العوامل أن تؤتى ثمارها وتدنى قطوفها فكان أن نمت الكتابة فى العصر الأموى نموا واسعا وازدهرت ازدهارا عظيما ، ولقد كان الفضل فى تدعيم هذه النهضة الفنية للكاتب القدير المبدع عبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى يضرب به المثل فى صناعة الكتابة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٩٩ .

فيقال . بدئت الكتابة بعبد الحميد « فقد احتفل بالكتابة وتأنق فيها ونقلها إلى مرحلة جديده احتلت فيها المنزلة الرفيعة المكانة المرموقة [١] والدكتور طه حسين يجعل الكتابة الفنية مدينة لعبد الحميد وعبقريته اللماحة وثقافته الواسعة [٢] وقد اختلف فى الثقافة المكملة لثقافته العربية . فبعضهم يرى أنها الثقافة الفارسية [٣] ، وبعضهم يرى أنها اليونانية [٤] .. وعلى كل فعبد الحميد الكاتب جدير أن يكون شيخ الكتاب لما له من مواهب عظيمة وذكاء نادر وصفات جليلة ولقد استطاع عبد الحميد أن يبتكر فى هذه الصناعة أمورا أهمها :

الايجاز فى غير اخلال ، والاطالة فى غير املال ، كما أنه أطال فى الفواتح والخواتيم بما يعد جديرا فى هذا العصر كالاتيان بكثير من التحميدات فى أساليب متنوعة وصدور محكمة وكالبدء .. ببسم الله « تم اتباعه » بالحمد لله « فاصلا بينهما .. بأما بعد » كما أنه أكثر وأجاد من الرسائل الاخوانية التى كانت مثالا يحتذى بلاغة وفصاحة وروعة مما يؤكد الأثر العميق البالغ لكتاب الدواوين فى أدبنا العربى ، ورقيه وتطوره ، وازدهاره ونهضته .

ومن أشهر الكتاب فى هذا العصر غير عبد الحميد أبو العلاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك واستاذ عبد الحميد بن يحيى الكاتب وأحد الواضعين لنظام الرسائل وصنعة الكتابة ويروى عنه صاحب الفهرست أنه ترجم إلى العربية

---

(١) المدخل إلى النقد الأدبى الحديث لمحمد غنيمى هلال ص٢٣٧ .

(٢) حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ ، ص ٤٦ ، ص ٥٢ .

(٣) النثر الفنى لزكى مبارك ج١ ص ٥٧ .

(٤) حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٢ ، ص ٤٤ .

رسائل أرسطو إلى الاسكندر(١) ومنهم أيضا جبلة بن سالم كاتب هشام أيضا وكان يعرف الفارسية. ويفضل هؤلاء الكتابة أمثالهم بلغت الكتابة الفنية فى هذا العصر منزلة عظيمة ودرجة رفيعة وغاية لا تدرك وشأوا بعيدا. وإذا كان للحركة الفكرية آثارها البعيدة المدى فى التطور الفنى الكتابة الديوانية مما يؤكد بحق حيويه أدبنا العربى وخصوبته واستجابته لعوامل النهضة والتطور فاننا نلحظ بوضوح أن الكتابة الانشائية فى العصر الأموى تبعا لمسار الحركة الفكرية وإستجابة لعوامل التطور قد مرت بطورين فهى فى العهد الأول الذى يمتد الى زمن الوليد بن عبد الملك نراها وقد امتازت باليسر والبساطة والوضوح والايجاز والبعد عن التكلف فى صورة مماثلة لما كان عليه الحال فى عصر صدر الاسلام فالكاتب يتأنق ولا يقصد الى تفنن أو زخرف انما يقصد الى أداء غرضه فى عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الايجاز (٢).

أما فى العهد الثانى الذى يمتد من زمن الوليد الى نهاية الدولة فقد أخذت الكتابة تتدرج فى التأنق والصنعة والاطناب واشراق البيان حتى صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها ومناهجها الفنية ولم يعد الأمر مقصورا على أداء الغرض منها فحسب بل قصد فيها الى التحبير والتجويد والتنميق فى أنغام موسيقية ولوحات تصويرية، ومالوا الى التنويع والتفريع، وقصدوا الى الأطناب والتطويل وهذه ظاهرة لا شك فى أنها وليدة التطور العقلى الذى أصابه العرب مما هيأ للكتاب أن يبسطوا آراءهم فى الشئون المختلفة وأن يفصلوا فى المعانى ضروبا مختلفة من التفصيل تنطوى على صنعة فى بسط التعبير وطول مداه.

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٧١.

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٦.

وللحقيقة كلمة أقولها وهى أن زمام هذا الطور كان بأيدى الموالى المثقفين بثقافة عربية واسعة ، والذين أضافوا الى هذه الثقافة ما ورثوه من ثقافات أممهم العريقة من الرومية والفارسية واليونانية والسريانية . ومن غير شك فان هذه الثقافات الأجنبية المتعددة قد ظهرت آثارها بوضوح فى الكتابة الفنية لهذه الفترة : مرونة فى أداء المعانى وجودة تقسيم ، ودقة منطق ، وأطناب وتطويل ، واسراف فى استخدام الحال عند بعض الكتاب على شاكلة استخدام اليونان له[1] . ومطابقات ومقابلات ، وصور وألوان ، وازدواج وترادف موسيقى يتيح للعبارات فنونا مختلفة من الايقاعات والموازنات الصوتية[2] . ولذلك أصبحت الكتابة متعة عقلية لدقة معانيها ولذة شعورية لجمال تصويرها وروعة موسيقاها ، وهذه من غير شك منزلة رفيعة ترجع بالفضل الى أولئك الذين تولوا قياد الكتابة فى هذه الفترة وعلى رأسهم شيخ الكتاب وزعيمهم بلا نزاع عبد الحميد بن يحيى الكاتب.

وفى النماذج الفنية من الكتابة الديوانية التى أعرضها خير دليل وأصدق شاهد على ما سبق أن قررته وفصلت القول فيه من الملامح والخصائص والمميزات التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالحركة الفكرية والتقدم الحضارى .

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربي ص ١٢٠ .

نماذج من الرسائل الديوانية فى العصر الأموى :

١ ـ كتب عبد الملك بن مروان فى الرد على رسالة للحجاج بن يوسف فى شأن عروة بن الزبير الذى كان عاملا لعبد الملك على اليمن :

« أما بعد فان أمير المؤمنين رآك ـ مع ثقته بنصيحتك ـ خابطا فى السياسة خبط عشواء الليـل ، فان رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا احرجك العامة بعنف السياسة كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لايلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه إذا رجوا بذلك ادراك الثـأر منك وقد وليت العراق قبلك ساسـة وهم يومئذ أحمى أنوفا وأقرب من عميـاء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منك عليهم وللشدة واللين أهلون والافراط فى العفو أفضل من الافراط فى العقوبة والسلام »(١) .

٢ ـ وكتب المهلب بن أبى صفره إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة يبشره بالنصر على الأزارقة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فانا لقينا الأزارقة المـارقة بجد وجد فـكانت فى الناس جولة ثم ناب أهـل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فاعقب الله خير عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا درئة رماحنا ، وضرائب سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام »(٢) .

. . .

(١) الأدب العربى فى طلال الأمويين والعباسيين ص ٧٥ .

(٢) الكامل للمبرد حـ ٢ ص ١٩٩ .

٣ ـ وهذه رسالة من هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك الا لما أحب من رب الصنيعة قبلك واستتمام معروفه عندك ، وكان أمير المؤمنين أحق من أستصلح لأفسد عليه منك ، فان تعد لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى فى معاجلتك بالعقوبة رأيه ... أن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة ابطرته فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما فى يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فاذا نزلت به الغير وانكشطت عنه عماية الغى والسلطان ذل منقادا وندم حسيرا ، وتمكن منه عدوه ، قادرا عليه ، قاهرا له ... » (١) .

• • •

٤ ـ وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب اليه الحسن رحمه الله :

« أعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الأمام العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والامام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على أبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مواقع الهلكة .. » (٢) .

• • •

---

(١) الكامل للمبرد حـ ٢ ص ٣٢٤ .

(٢) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ص ٧٦ .

٥ ـ وكتب الحجاج الى عبد الملك بهذه الرسالة :

« أما بعد فانا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله ايانا ، إلا مابل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ ، حتى دقعت الأرض واقشعرت واغبرت وثارت فى نواحيهـــا أعاصير تذرو دقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شـــدة الأرض وإعتزازها وامتناعها . وأرضنا أرض سريع تغيرها ؛ يوشيـك تنكرها ، سيىء ظن أهلهـــا عند قحوط المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة ، فأثارت زبرجا متقطعا متمصرا ثم أعقبته الشمال يوم السبت فطحطحت عنه جهامه ، وألفت متقطعة وجمعت متمصرة ، حتى انتضد فاستوى ، وطما وطحا وكان جونا مرتعنا قريبـا رواعده ، ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل يردف بعضه بعضا ، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب بشدة وقعه فى المعراض .. (١) .

. . .

٦ ـ ومن رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب التى أوصى فيها الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ، ووفقكم وأرشدكم ، فان الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا وان كانوا فى الحقيقة سواء ، وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب

---

(١) البيان والتبيين حـ ٤ ص ٩٩ . والوابل ، المطر الشديد ، والطش والرش والرذاذ : المطر القليل ودقعت الأرض : أجدبت ، القبـــول ، الريح الشرقية والزبرج : السحاب الرقيق الخفيف ، المتمصر : المتقطع طحطحت : فرقت وبددت ، الجهام : السحاب لا ماء فيه ، طما : امتلأ وزخر وطحا انبسط وملأ الجو .

معاشهم وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات ، والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف الا منكم ... — ثم يقول —

« فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآدب ، وتفهموا فى الدين وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، واروا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم ... » (١) .

• • •

٧ — وكتب عبد الحميد الى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد يعزيهم عن نفسه :

« أما بعد فان الله جعل الدنيا محفوفة بالكرة والسرور ، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها ، فمن درت له بحلاوتها وساعده الحظ فيها سكن إليها ورضى بها وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها وتوطأته بثقلها قلاها نافرا عنها ، وذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا منها وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفاويق استحلبناها ثم شمست منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ورمحتنا مولية ، فلح عذبها وأمر حلوها وخشن لينها ففرقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الاخوان . . (٢) .

---

(١) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ص ٧٨ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص٧٢ .

التوقيعـــات :

ولقد ظهر بوضوح وجلاء فى هذا العصر لون جديد من ألوان الكتابة الفنية الديوانية وأعنى به « التوقيـع » وهو الكتابة على حـواشى الرسائل التى ترد وترفع الى ذوى الشأن بما يفيد العلم بها وإبداء الرأى فيها .

يقول صاحب « صبح الأعشى »(١)... أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات فى الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث فى المظالم ، وهو أمر جليل ، ومنصب حفيل إذ هو سبيل الاطلاق والمنع والوصل والقطع والولاية والعزل الى غـير ذلك من الأمور والمهمات ، والمتعلقات السنية » .

وللتوقيع فى اللغة معان متعددة . جاء فى اللسان .. وقع ظنه على الشىء قدره وأنزله . والتوقيع الإصابة ، وتنظر الأمر ، وتوهم الشىء ، ومن معانيه اللغوية التأثير يقال « جنب هذه الناقة موقع أى أن فيه تأثيرا خفيفا من الحبال التى تشد عليها . والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحى أن التوقيع فى أسفل الكتاب تأثير خفيف الى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة، ووقع القوم : عرسوا : أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقع يكون فى آخر الكتاب المرفوع : ووقعت الابل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى فكأن الموقع بعد توقيعه قد اطمأن الى ما أبداه من رأى .

والتوقيـع فى الكتاب الحاق شىء فيه بعد الفراغ منه(٢) .

وفن التوقيع موجود من قـديم فى الأدب الفارسى ووجد فى الأدب العربى منذ عصر صدر الاسلام ، ويقال ان أول ما عرف من فن التوقيع كان لعمر

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١ ص ١١٠ .
(٢) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ص ٢٢٣ .

بن الخطاب رضى الله عنه إذ كتب الى سعد بن أبى وقاص فى شأن بنيان :

« ابن مايستر من الشمس ويكن من المطر » كما وقع لعمرو بن العاص :

« كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك » ثم ذاع هـذا اللون وانتشر وخاصة فى العصر الأموى حين إزدهرت مظاهر الملك وتنوعت شئون الدولة وتعددت الحاجات والمطالب وكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا فى كل ذلك برأى ويوقعوا بما يرون من تدبير .

وقد كان يتولى التوقيع فى ابتداء الأمر الخلفاء ، فكان الخليفة هو الذى يوقع فى الأمور المتعلقة بشئون الحكم وفصل المظالم وغيرها .

ويمتاز هذا اللون من الكتابة الفنية الإنشائية بالايجاز والاحكام والدقة ولطف الاشارة وقوة الاثارة ، وسلامة العبـــارة ، وقد يكون التوقيع آية مقتبسة أو حديثا مرويا أو حكمة صائبة أو مثلا سائرا أو بيتا من الشعر .

ولقد دعا الى ذيوع هذا اللون من الكتابة الفنية ما تكاثر فى هذا العصر من مظاهر الملك وتنوع فى شئون الدولة وتعدد من حاجات الناس ومطالبهم ، وكان لا بد للخلفاء والولاة أن يدلوا فى كل ذلك برأى ويشيروا بما لديهم من تدبير ، ومن هنا إضطروا إلى الايجـــاز فى التعليق وإصطناع الحكمة فيما يختارون من توقيـع . ومن هنا يبدوا لنا بوضوح مدى الارتباط الوثيق بين التطور الفكرى والتقدم الحضارى وبين هـذا اللون من الكتابة الفنيـة الديوانية الذى أوجدته ظروف التطور ووجهته الحركة الفكرية الصاعدة فى طريق النماء والازدهار . . فهناك القراءة الواعية الفاهمة المتدبرة لمضمون الرسائل والكتب . وهناك الحسم وسرعة البت وبعد النظر .

وهناك التعليق الموجز المركز الدقيق العميق الذى يحيط بأطراف الموضوع

ويسبر أغوار المشكلة ويتمثل فيه الرأى الشديد والحكم الصائب والقول الفصل .

وهذه بعض النماذج من التوقيعات التى يتجلى فيهـــا ما سبق أن بينته من الخصائص الفنية وعمق الإرتباط بالتطور الفكرى وعظم الاستجابة لدواعى التقدم.

١ ـ وقع سعيد بن العاص فى كتاب لزياد :

« كلا أن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

• • •

٢ ـ ووقع عمر بن عبـد العزيز على كتاب عامل له يستأذنه فى تجـديد بناء مدينة :

« ابنها بالعدل ، ونور طرقها من الظلم » .

• • •

٣ ـ ووقع سليمان بن عبدالملك لقتيبة بن مسلم حين كتب إليه يتهدده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا
أبشر بطول سلامـــة يا مربع

* * *

الكتابة الديوانية فى العصر العباسى

لئن كانت الكتابة فى آخر عصر بنى أمية قد صارت صناعة عتيدة لها أصولها ومناهجها ، ورسومها وقواعدها بما زاد فيها سالم مولى هشام وتلميذه عبد الحميد من تهذيب وصقل وتجويد فقد نهضت وازدهرت فى عهد نفوذ الخلفاء فى العصر العباسى الأول وصارت صناعة من أشرف الصناعات ، وأصبحت سلم الوصول إلى المجد والصعود إلى رتبة الوزارة وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب .

وقد تنوعت الكتابة الفنية فى هذا العصر إلى ألوان عدة :

فمنها الرسائل الأخوانية التى يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعة أو عتاب وما إلى ذلك . وهى أوسع ميدانا وأكثر فنانا ، وأعذب بيانا ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدرا .

ومنها الرسائل الأدبية المطولة التى يكتبها البلغاء يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع والفكر والأدب أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها فى الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ونحو ذلك مما يتجلى فى السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص كرسائل الحميس ورسائل ابن المقفع والجاحظ .

ومن ألوان هذه الكتابة الفنية الرسائل الديوانية أو الرسمية التى تصدر عن ديوان الرسائل فى شأن من شئون الدولة ، وكانت الكتابة فى هذا الديوان بخلافها فى الدواوين الأخرى الكثيرة إذ كانت تعتمد على التأنق فى الأسلوب ، والجمال فى العبارة ، والبراعة فى اظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة (١) .

---

(١) المدخل إلى النقد الأدبى الحديث ص ٢٣٨ .

وحين بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق وولى الخلافة أبو العباس السفاح أو خلفاء بنى العباس استوزر « أبا سلمة الخلال » وهو أول من لقب بالوزارة فى الإسلام ، وتوالى الوزراء بعده لخلفاء بنى العباس ...

وكان ديوان الإنشاء تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذى ينقد أموره بقلمه ويتولى أحواله بنفسه ، وتارة يفرد عنه بكاتب ينظر فى أمره ويكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بكلامه ويصرفها بتوقيعه ، وصاحب ديوان الانشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ويسير وفق ما يلقى إليه من توقيعه(١).

ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالما أديبا بليغا اريبا مصيبا داهية محنكا قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، والذين تسنموا هذا المنصب الخطير كانوا من صفوة الناس وأعلاهم أدبا وخلقا وكفاية ودراية وذكاء وفهما وسرعة بديهة .

وقد بلغت الكتابة الفنية فى هذا العصر من الرقى والسمو مالم تبلغه فى أى عصر من العصور وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ولكثرة محفوظات الأدباء من الآداب العربية والآداب المترجمة .

وكان لتعدد العواصم ومراكز الحكم فى العصر العباسى الثانى أثر عظيم فى نهضة الأدب ورفعة شأن الادباء فقد تفككت عرا الدولة العباسية وأصابها التمزق والإنحلال وتوزعت إلى أكثر من عشر دون ترجع السيادة فيها إلى عناصر تختلف أصولها بين الفارسية والتركية والعربية وكان من بين تلك الدول دولة البويهيين التى أسسها بنو بويه فى بلاد فارس سنة ٣٢٠هـ . وفتحوا بغداد

---

(١) صبح الاعشى حـ ١ ص ٩٣ .

سنة ٣٣٤ هـ والدولة البويهيـة كانت تبسط سلطانها على العـراق وفارس ، وفيما حولها دول شابهتها فى النشأة :

الدولة الطولونية فى مصر والشام	دولة تركية	٢٤٥ ـ ٢٩٢ هـ.
« الصفارية بفارس	« فارسية	٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ.
« السامانية بفارس وما وراء النهر	« فارسية	٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ.
« الساجية فى اذربيجان	« «	٢٦٦ ـ ٣١٨ هـ.
« الزيارية بجرجان	« «	٣١٦ ـ ٣٤٤ هـ.
« الحمدانية بحلب والموصل	« عربية	١٢٧ ـ ٣٩٤ هـ.
« الايلكية بتركستان	« تركية	٣٢٠ ـ ٥٦٠ هـ.
« الاخشيدية بمصر والشام	« «	٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ.

وهناك دول أخرى نشأت والبويهيون يسيطرون على بغداد وهى : ـ

الغزنوية فى السند وأفغانستان. والفاطمية فى مصر والشام ومن بعدها الأيوبية والعقلية فى الجزيرة وديار بكر ، والمزيدية فى الحلة ، والمرادسية فى حلب وأخيرا السلجوقية وما تفرع عنها من فروع[1] .

ولقد أفاد الأدباء من هذا الانقسام حيث تعددت لهم معارض الأدب وأسواقه وكثرت أمامهم الموارد وبعد أن لم يكن لهم متجه غير بغداد تراءى لهم مايضارعها فى الذكر أو يفوقهـا مثـل القاهرة وحلب والرى وأصبهان وشيراز وجرجان

---

(١) من حديث الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى : أحمـد الشعراوى ص ٨ ، ص ٩ «مذكرة» .

وبخارى ومنيسابور وغيرها . ولقد تسابقت هـذه المراكز الأدبية فى اجتذاب الأدباء من الكتاب والشعراء واندفع الحكام إلى هـذه الغاية بدوافع سياسية ونفسية وعنصرية وثقافية .

وقد أفادت الأقاليم أيضا لأن تاريخ الأدب أدخلها فى حسابه وما كان لها ذلك وهى تدور فى فلك العراق . لقد أصبح لكل اقليم ثروته الزاخرة من الأدب وعدده الوافر من الكتاب والشعراء ، ونحن نرى فى كتاب .. يتيمة الدهر » للثعالبى مصداقا لما نقول فقد أرخ به الثعالبى لمعاصريه من أدباء القرن الرابع الهجرى وكان اعتبار الأقاليم عمدته فى تقسيم الكتاب إلى أربعة أقسام : جعل الأول لأدباء الشام ومصر والموصل والمغرب ، وجعل القسم الثانى لأدباء العراق ، والثالث لأدباء الجبل وفارس وجرجان وطبرستان وأصبهان ، والرابع لأدباء خراسان وما وراء النهر . وفى رحاب البويهيين والفاطميين والحمدانيين والأيوبيين ازدهرت دواوين الانشاء . وكان للكتاب شأن أى شأن وهذا ما يقوله المقريزى فى خططه عن كتاب ديوان الانشاء .

« كان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالشيخ الأجل ويقال له كاتب الدست الشريف ويسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والاجابة عنها للكتاب والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه ، وهـذا الأمر لا يصل إليه غيره وربما بات عند الخليفة ليال وكان جاريه مائة وعشرين دينارا فى الشهر (١) » .

وكان هذا التشجيع من جانب الخلفاء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثا على

(١) فى مواضع متفرقة من « يتيمة الدهر » وخطط المقريزى وصبح الأعشى .

النهوض بالكتابة داعيا إلى ارتفاع شأنها وسمو منزلتها ثم كان التنافس القوى بين الأدباء وتسابقهم إلى الخلفاء والرؤساء حافزا على التجويد والتأنق فى الأسلوب فازدهرت الكتابة وصارت من أشرف الصناعات ونبغ فيهافحول لم يجد الدهر بمثلهم فى البلاغة والفصاحة والحذق والبراعة واللطف وشرف الصناعة حتى بذوا فحول الشعر فى عظمة الجاه وسعة النفوذ والسلطان (١) .

ولهذه المكانة الخطيرة والمنزلة العظيمة تسابق الأدباء فى مجال التأليف عن الكتابة الانشائية والكتاب ، فقد ألفت فى أدب الكتابة والكتاب والوزراء كتب كثيرة منها :

« أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و .. « أدب الكتاب » للصولى و كتاب الكتاب » لابن درستويه و .. كتاب .. « الوزراء والكتاب » للجهشيارى وكتاب .. « الأحكام السلطانية » للفخرى ، والكتاب الضخم صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء للقلقشندى .

وكما ازدهرت الكتابة وارتقت ازدهر فن التوقيع وارتقى فقد نضج هذا الفن واستحكم وقوى فى عصر نفوذ الخلفاء ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وفحول البلغاء وكان الكتاب يتنافسون فى اجادته ويتبارون فى بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الايجاز وقوة التعبير وجمال التصوير وشدة التأثير ولطف الاشارة وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون فى التوقيع الواحد نحو عشرين درهما (٢) ..

* * *

(١) الأدب العربى فى ظلال الأمويين والعباسيين ٢١٧ .

(٢) نفسه ص ٢٢٤ .

أعلام ومعالم على طريق تطور النثر الفنى

والكتابة الديوانية فى العصر العباسى

ازدهرت الكتابة مع بداية العصر العباسى فغنيت أساليبها وفصحت وحسن تخير الألفاظ والعبارات وانتفت الألفاظ المتوعرة وقامت لغة متوسطة تعتمد على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة كما تعتمد على ضروب من التلاؤم الموسيقى الذى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع وكان كبار الكتاب يتخذون هذا الأسلوب الذى يحرص على الموازنة الدقيقة بين طرافة المعانى واثارة الجمال فى النفس وفى الأذن دون كد ومجاهدة وكان هذا المذهب الذى سار عليه أكثر كتاب العصر العباسى مذهب الصنعة وقوامه العناية بالعبارة وجمالها وحسن أداتها والموازنة بين اشراق اللفظ ووضوح المعنى وطرافته على تفاوت فى هذا المذهب بين الكتاب . وبينما كان هذا المذهب قائما عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها فى بيئة الكتاب الرسميين الذين أخذوا يبالغون فى أناقة تعبيرهم ، ودقة أذواقهم حتى انفصلوا عن الأسلوب المرسل إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة يقوم على السجع والتنميق . وقد تمادى الكتاب وتفننوا فى هذا المذهب حتى غدت الكتابة على أيديهم أشبه بصناعة السجاد التى كانت رائجة فى بيئاتهم إذ يعانى الكاتب فى كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد فى كل خيط ثم هو يعنى بعد ذلك بالوشى والتلوين وما إلى ذلك حتى صارت الكتابة صناعة معقدة أشبه شىء بالتطريز الخالص ويستمر الحال على ذلك حتى تغدو الكتابة على يد القاضى الفاضل زخرفا خالصا بادى التكلف يسرف فى التضييق على نفسه وفى احاطتها بالقيود كما تحوط الدودة نفسها بالحرير حتى لا تكاد تجد لها متنفسا .

والحق أن الحيـاة العباسية كانت تقوم على الترف والزينة وما يتصل بهما من تصنيع وزخرف وساعد الناس فى ذلك إرتفـاع مستوى المعيشة وما كانوا عليه من بذخ وثراء وما إنتشر من غناء وشراب ولهو ومما كان له أعظم الأثر فى هذا الذوق المترف الذى سرى فى جميع جوانب الحياة وطبيعى أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعيـة إلى حياتهم الأدبية لأنـه تعبير عن عصرهم الذى عاشوا فيه (١) .

وإلى جانب ذلك كانت هناك النهضة العلمية العظيمة والإزدهار الثقافى المتعدد الجوانب وحركة الترجمة الخصبة المثمرة والتطور الفنى المبـدع الخلاق والتألق الفـكرى المتميز الفريد وخاصة فى العصر العباسى الأول .

وبالنظرة المتأنية الفاحصة يمكننا أن نلحظ بوضوح أن الصنعة فى النثر الفنى عموما والـكتابة الديوانية بوجه خاص قـد تتابعت فى موجات متلاحقة طغت على كل شىء ، وسيطرت على كل إتجاه : من تأنق فى التعبير ، وروعة فى التصوير ، ومراعاة للازدواج والايقـــاع الصوتى المنغم ، وتفنن فى السجع ، وبراعة فى الجنـاس ، وميل إلى المقابلة والمطابقة وتهـافت على التورية ، وإهتمام بالتضمين والاقتباس ، وإستخـدام للاشارات التاريخية والمصطلحات العلمية والطرائف الأدبية ومأثور الحـكم والأمثال ولا زالت الموجات تتوالى وتتلاحق لتصل بنـا إلى عهد من التصنيع والتـكلف والتحذلق فقدت فيه المعانى قيمتها ولم يعد لها أهمية إنما الأهمية كلها كانت للألفاظ وما يطرز به من وشى وحلى وأساليب تعقيد زخرفية ولجؤ إلى ضروب من التهويلات والمبالغات وتمادٍ ممقوت فى ذكر ألفاظ العلوم والمصطلحات والاشارات ، وتفنن فى نثر الشعر وحله وإدماجه فى الـكتابة

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٩٢ .

وقصد إلى الاغراب والاعنـاب والتضيق بضروب من التكلف المرير ... يدل على ذلك ما يرويه الثعالبى عن بديع الزمان فى يتيمته (١) .

.. كان يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول «وما يرويه البديع عن نفسه فى رسائله (٢) من.. أنه يستطيع أن يكتب كتابا يقرأ منه جوابه أو كتابا يقرأ من آخره إلى أوله أو كتابا إذ قرىء من أوله إلى آخره كان كتابا فان عكست سطوره مخالفة .. كان جوابا ، وأو كتابا خاليا من الألف واللام أو كتابا خاليا من الحروف العواطل أو كتابا أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم أو كتابا إذا قرىء معرجا وسرد معرجا كان شعرا أو كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا وإذا فسر على وجه كان قدحا » . وتستمر هـذه الظاهرة فى النمو والاطراد حتى يصل بنا الأمر إلى حال يستحيل معها أن نعثر على كاتب لا يستخدم مثل هذه العقد والطرق الملتوية فى فنه، فقد كان ذلك الذوق العام للناس ، وكان الكاتب ما يزال يحتال على إرضاء هذا الذوق بكل الصور و بشتى الطرق حتى ليخيل إلينا أن كل شىء يريد أن يتعقد ويتصعب وقد يبدو هذا عجيبا وغريبا وشاذا لكن الحقيقة أن الأمم حين ترقى عقليا وتتقدم حضاريا تتحول من الأحوال الطبيعية فى التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد واعناب واغراب وتصعيب، وهذا ناشىء أساسا من تعقيد الحياة ذاتها وتعدد شعابها وصعوبة مناحيها . الأمر الذى عبر عنه ياقوت فيما يرويه عن الوزير المهلب المتوفى عام ٣٥٢ هـ من أنه كان « إذا أراد أكل شىء بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل

(١) يتيمة الدهر : حـ ٤ ص ٢٤٠ .
(٢) رسائل بديع الزمان ص ٧٤ .

الأولى حتى ينال الكفاية فلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية ..(١) .

وقد أخذ هذا التعقيد يتسرب إلى الكتابة الفنية بقدر وبشيء من التتابع والتدرج إلى أن وصل الأمر إلى صورته الممقوته وحاله التى لا تسر ولا تخدم شعرا أو نثرا وكأن ذلك كله كان إيذانا بجمود الحياة الفنية فى النثر العربى الأمر الذى ظهر بوضوح وجلاء فى نهاية العصر العباسى وكما يقول أحد الباحثين المعاصرين (٢) .

« كأنما أجدب معين الفكر العربى أو قل أجدب معين الحضارة العربية فلم يعد يظهر من جديد إلا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب وأن الانسان ليشعر كأن الحياة العربية أصيبت بعطل شديد وأنه عطل يتسع فاذا مصانع النثر لاتستطيع أن تخرج ضربا جديدا أو مذهبا حديثا » .

ونحن إذا مضينا فى تتبع كتاب الدواوين وغيرهم فى العصر العباسى وجدناهم قمما شامخة فى عالم الأدب والبيان وقوة راسخة لها وزنها فى الحياة الاجتماعية والأدبية ويكفينا أن نشير إلى هذه الأسماء اللامعة فى سماء الأدب وعالم البيان :

أبو سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ، ويحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، وسهل بن هارون ، والفضل بن سهل للمأمون ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف وابن المقفع والجاحظ وابن العميد وابن عبد كان ، والقاضى الجرجانى والقاضى التنوخى : والموفق بن الخلال والقاضى وابن الصيرفى ، وابن قادوس ، وابن الزيات والحسن بن وهب وعلى بن الفرات وابن مقلة والصاحب بن عباد ، وأبو

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٣ ص ١٠٣ .

(٢) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣١٠ .

إسحاق الصاقى، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمزانى ، وأبو الفضل الميكالى ، وعبد العزيز بن يوسف وأبو العباس الضبى، وعلى بن محمد الاسكافى وأبو الفتح البستى، وجار الله الزمخشرى ورشيد الدين الوطواط وعماد الدين الأصفهانى وأبو الفرج الجوزى وضياء الدين بن الأثير وأبو منصور الثعالبى وأبو هلال العسكرى وأبو العلاء المعرى [١] .

كل هؤلاء الكتاب كان لهم الأثر الأول فى الإتجاه إلى مذهب التصنيع فى الكتابة الفنية . لقد كانوا هم الرواد على طريق تطور النثر الفنى فى هذا العصر؛ والحقيقة أن جماعة كتاب الدواوين بوجه خاص كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة وقد عنوا عناية خاصة بالثقافة الفلسفية حتى يعمقوا أفكارهم ويرقبوا معانيهم ترتيبا دقيقا ، كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافات الأجنبية ينهلون من معينها ويستمدون من منابعها وقد كانت عنايتهم بالغة بالألفاظ المختارة المنتقاة يقول الجاحظ :

... ان الكتاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور وعمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت الى حسان المعانى » [٢] .

وكلام الجاحظ يفسر بوضوح ما روى عن بعض الكتاب من مثل قول الجهشيارى عن جعفو بن يحيى البرمكى صاحب الدوارين فى عهد الرشيد .. كان

---

(١) فى مواضع متفرقة من يتيمة الدهر ـ خطط المقريزى ـ صبح الأعشى .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ حـ ٤ ص ٢٤ .

جعفر بليغا كاتبا وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته (١) . ويقول عنه ابن خلدون « أن الناس كانوا يتنافسون فى الحصول على توقيعاته ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها تباع كل توقيع بدينار » (٢) .

على أنى لا أغفل فى هـذا المجال الاشارة إلى أمر هام هو أنه على الرغم من إنقسام الدولة العباسية إلى دويلات وامارات إلا أن هذه الدويلات والامارات قد هيأت لحركة أدبية وعقلية واسعة وكان عهدها حافلا بالنشاط الأدبى والعلمى والفلسفى مما كان له أثره فى النثر الفنى عموما والكتابة الديوانية بوجه خاص .

لكن الأمر قد إختلف بعد ذلك فى فترات الجمود والضعف وخاصة فى عهد السلاجقة فقد أدرك الكتابة الفتور والضعف والجمود فى شتى النواحى فهم من بداة الترك ولا إدراك لهم فى الأدب وصلتهم باللغة العربية وثقافتها مقطوعة ولم يكن الروح والريحان فى عهدهم إلا فى مصر والشام فى كنف الفاطميين ثم الأيوبيين . ومن هنا ندرك أن الكتاب بعد العهد البويهى كانوا دون أسلافهم فى الاستعداد المهنى ولذلك لم تكن لهم الكفاية والمقـــدرة فى الانشاء كما كان الحال زمن البويهيين ، ومن هنـا أيضا دلف العلماء اللغة والنحو إلى دواوين الانشاء حيث يتوسدون فيها منصب التصفح ومراجعة الرسائل فلا يخرج عن الديوان كتاب دون أن يمر على أحدهم البويهى فيتأمله ويفليه ويتناوله بالتصحيح والتقويم بينما لم يحدث مثل ذلك فى العهد إلا بشكل يسير وفى الأقطار النائية . حقا أنه الضعف والجمود والتخلف ظهر وإنتشر وسرى فى كل شىء وتغفل فى كل كيان فاستحالت الكتابة عموما إلى جسد بلا روح ومظهر بلا جوهر وشكل بلا مضمون .

هذه أهم المعالم على طريق تطور الكتابة الديوانية فى العصر العباسى بعهديه

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٠٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .

الأول والثانى ويبقى الآن أن نقف وقفة متأنية مع بعض الأعلام الذين إرتبطت أسماؤهم بالمذاهب الفنية للنثر العربى وكانت لهم آثار بعيدة المدى فى نهضة النثر الفنى عموما وتطور الكتابة الديوانية بوجه خاص الأمر الذى يؤكد ما نحن بصدده من إرتباط الكتابة الديوانية بالتطور الفكرى والازدهار الثقافى على أيدى الجهابذة الفحول رواد الحركة الفكرية وأعلام النهضة العلمية والأدبية والثقافية ...

* * *

ابن المقفع

أبو محمد عبد الله بن المقفع ولد عام ١٠٦ هـ « ٧٢٥ م » من سلالة فارسية اسمه روزبه بن داذويه (١) وأبوه من قرية تسمى جور (٢) من أعمال فارس على مقربة من شيراز وهو مجوسى لم يسلم رغم انتقاله إلى البصرة والتحاقه بديوان الخراج فى عهد الحجاج ويروى أنه اختلس مالا فضربه الحجاج حتى تقفعت يده أى يبست فلقب المقفع (٣) ، وقد نشأ ابنه .. ابن المقفع على مجوسيته . وفى البصرة وجد ابن المقفع الفرصة لكى يأخذ عن أدبائها وعلمائها وقد كان ذكيا موهوبا واسع الاطلاع فى الأدب العربى واللغة العربية ، كما أخذ ابن المقفع عن أبيه اللغة الفارسية وآدابها وصناعة الكتابة وسرعان أن ظهرت مخايل الفصاحة والبلاغة على ابن المقفع فكتب لعمر بن هبيرة فى دواوينه على كرمان بفارس ومن بعده لابنه يزيد حين ولى العراق من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن على عم المنصور وعلى يديه أعلن اسلامه بعد أن كان مجوسيا وتسمى باسم عبد الله واكتنى بأبى محمد (٤) وقد اشتهر عن ابن المقفع أنه كان زنديقا وأنه انما اتخذ الاسلام قناعا لزندقته (٥). ومن هنا يرى بعض الباحثين أنه قتل بسبب زندقته . بينما يرى البعض الآخر

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٩ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ .
(٤) الفهرست لابن النديم ص١٧٢ .
(٥) الأغانى حـ١٨ ص ٢٠٠ ، وفيات الأعيان حـ ١ ص ١٥٠ خزانة الأدب للبغدادى حـ ٣ ص ٤٩٥ .

أنه قتل بايعاز من المنصور حين تشدد فى كتابة عهد الأمان لعبد الله بن على أخي عيسى وعم المنصور الذى حاول الخروج على ابن أخيه وفشل وفر منهزما وسعى فى طلب الأمان من ابن أخيه المنصور وهم يستدلون على ذلك بقول الجاحظ فى بعض رسائله أنه (أى ابن المقفع) أغرى عبد الله بن على بالمنصور فطن له وقتل(١) . وقد اختلف فى تاريخ مقتله هل كان عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ .

ومع أن ابن المقفع كان كاتبا شهيرا من كتاب الدواوين فان أهميته ترجع إلى أنه كان مترجما مجيدا فقد برع وأجاد فى نقل خيرة التراث عن لغته الفارسية وما نقل اليها من اللغات الأخرى وقد كان لهذه الثقافات المختلفة أثر عظيم فى تكوين شخصيته وعقليته .

والحقيقة ان ابن المقفع كان من البلاغة فى الذروة ويكفى أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه فى لغته من تراث عقلى وتاريخى وفلسفى وأدبى إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها وشخصيتها وخصائصها . وأسلوب ابن المقفع أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من اغراب فى اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال . أسلوب يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الفكرية والثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية وقد دعاه ذلك الى اتخاذ نهج معين قوامه : تخير الألفاظ وانتقاء العبارات وحسن الأداء وسلامة التعبير والعناية بالمعانى والميل إلى السهولة والزهد فى السجع وتجنب الوحشى من من الكلام والغريب من الألفاظ مع ميل إلى تنويع العبارة وتقطيع الجملة واتجاه خاص الى الايجاز ويروى المرتضى فى أماليه بعض أقوال ابن المقفع التى تنبىء

---

(١) نقلا عن الفن ومذاهبه ص ١٣٦ .

عن هذا المذهب من مثل قوله .. أياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة فان ذلك هو العي الأكبر » وقوله .. عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة» وقد أجاب عن سؤال وجه اليه فى معنى البلاغة بقوله هى.. التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها (١) .

وبعد فهذا هو ابن المقفع الذى جعله ابن النديم من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسى وكتابه (٢) . والذى قال عنه الجاحظ .. لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط » (٣) اعجابا به وتقديرا لرأية ...

* * *

(١) أمالى المرتضى حـ ١ صـ ١٣٧ .
(٢) الفهرست لابن النديم صـ ١٨٢ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ حـ ١ صـ ١١٥ .

الجـــاحظ

وفى محاولتنا تسليط بعض الأضواء على بعض الاعلام البارزين فى هذا العصر العباسى الزاهر نلتقى بعلم « عظيم من أعـلام البيان وقـة شامخة من قمم الـكتابة الفنية وهو أبو عثمان عمـر بن بحر بن محبوب الـكنا نى الملقب بالجاحظ ولد عام ١٥٠ هـ ٧٦٧ م وقد اقترن ميلاد الجاحظ بميـــلاد النهضة السياسية والفـكرية والأدبية فى العصر العباسى الأول وفى ظلال نفوذ الخلافة العباسية وقـد عاش أكثر من قرن من الزمان إذ توفى فى المحرم عام ٢٥٥ هـ وعاصر أثنى عشر من خلفاء بنى العباس .

والجاحظ : لقب لأبى عمرو بن بحر فقد كان جاحظ العينين بارزهما مشوه الوجه وكان يلقب بالحدقى لأنه كان نائىء الحدقتين .

وقد تلقى الجاحظ علمه عن جلة العلمـاء وأئمـة البصرة وكان له من فطرته وطبيعته وطموحه وذكائه ونفاذ بصيرته وخـبرته وتجاربه ما رفعه مكانا عليـا وأنزله منزلة سامية . ولم تنـــله كفايته منزلة فى ديوان الرسائل ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منـه لأنه حورب حربا شديدة من الشعوبيين وغيرهم (١) . والجاحظ لم يترك موضوعا عاما إلا وكتب فيه رسالة أو كتابا ومن يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف فى النبات وفى الشجر وفى الحيوان وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش وفى الجد والهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمـان وفى العشق والنساء وفى النبيذ وفى الشيعة والعباسية وفى الزيدية والرافظة وفى الرد على النصارى وفى

---

(١) أبو عثمان الجاحظ : د. محمد عبد المنعم خفاجى ص ٨٨ .

حجج النبوة و نظم القرآن وفى البيـان والتبيين وفى حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل وفى النجلاء واحتجاج الأشحاء[١] .

وفى هـذا مايدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عنـد العرب خطوة جديدة نحو العبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عـذب فهو يعنى بألفاظه ومعانيه جميعا دون أن يجوز شىء على شىء أو يحيف عليه يقول الجاحظ .. لربما خرج الكتاب من تحت يدى محصفا كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة وألفاظ شريفة فصيحة »[٢] والكتابة عند الجاحظ ليست زخرفا خالصا يراد به إلى الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات بل هى معان تؤدى فى دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيرا لاتستره اسجاف الاستعارات والأخيلة ، وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير فانه انمـا عزف عن الأخيلة لما تضع أمام القارىء من مبالغات أما بعد ذلك فانه كان مصورا عظيما إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة وهى قدرة جعلتـه يحسن التصوير من جهـة كما يحسن القصص من جهـة أخرى ، ويتضح ذلك فى كتـابه .. النجلاء ، وكتـابه « الحيوان »[٣] والجاحـظ يعنى بأصواته غنـاية تفضى إلى ضروب مختلفة من الايقاعات الصوتية ولم يكن يستعين على تجميل هذه الايقاعات بشىء من البديع وألوانه بل كان يكتفى بها لتعبر عن كل ما يريد من جمـال لأسلوبه وطلاوة ، لقد تفوق الجـاحظ فى صنعته على جميع كتاب عصره إذ كان يؤصلهـا على التلوين

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٦١ .
(٢) مجموع رسائل الجاحظ ص ١٠٩ .
(٣) أبو عثمان الجاحظ ص ٢١١ .

العقلى من طرف والتلوين الصوتى من طرف آخر فاذا أساليبه تنهض بهذه الثروة الباهرة وتلك الموسيقى الرصينة الرائعة والحق أن الجاحظ استطاع أن يدمج ادماجا حسنا بين ثقافته وأسلوبه وأن يخرج من ذلك إلى هذه الصنعة الجاحظية البديعة التى تقوم على التجانس بين اللفظ الموسيقى الرشيق والمعنى العقلى الدقيق تجانسا يمتع العقل والفكر كما يمتع الحس والشعور.. يقول عنه ابن العميد .. أن الناس عيال عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة »(١) ويقول عن كتبه :

« ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا »(٢) .

وقد كان الجاحظ مصورا عظيما إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدره غريبة على الملاحظة وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرى . ومن غير شك فقد كان لطريقته هذه ومنهجه وأسلوبه تأثير كبير فى معاصريه ومن أتى بعده بعهد بعيد وفى تراثه الأدبى الوفير الخالد خير دليل على ما أقول .. وهكذا كان أبو عثمان صوت عصره وصورة بيئته وحياته وشخصيته وثقافته وثروته الأدبية والفكرية ، والآلة المحكمة التى أحسنت نقل أصوات أهل جيله وأفكارهم ومعارفهم وأطراف من فنونهم وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة افانين من أدبه جعلها بروح الحق والصدق ووشاها بسحر القول وبلاغة الكلام(٣) ».

* * *

(١) معجم الأدباء لياقوت حـ ١٦ ص ١٠٣ .
(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٣٨٩ .
(٣) أبو عثمان الجاحظ د. خفاجى ص ٢١٣ .

ابن العميـــد

علم ثالث من أبرز الأعلام تعرض له ونلقى على أدبه بعض الأضواء لما له من أثر كبير فى النثر الفنى وتطوره فى العصر العباسى الثانى وهو ابن العميد أستاذ كتاب البويهيين الذى يجمع على أستاذيته النقاد ويعقد له لواءها كل من اتصلوا به حتى أولئك الذين كانوا يشنئونه ويبغضونه .

وهو أبو الفضل محمد بن الحسين وهو فارسى من مدينة قم وهى مدينة شيعية وقد نشأ فى بيت أدب - وكتابة إذ كان أبوه كاتبا لما كان بن كاكى ثم بعد ذلك تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر وقد لقب بالعميد ، ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتى بلغ ما بلغ وإستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل (١) وكانت وفاته عام ٣٦٠ هـ ولقد كانت طريقة ابن العميد مزاجا بعض عناصره من كتابة الجاحظ وبعضها من كتابة الديوانيين وبعضها مما وجهه إليه عصره وإستعداده الذاتى فهو يولى الموضوع من جهده ما يضاهيه فيقسمه ويرتب أقسامه ويستوفى لكل قسم ما يجليه من معان جزئية ويتناول هذه المعانى بالتدقيق والتشقيق ويتعهدها بالتفريع والتنويع ويولد بعضها من بعض ويقرن بعيدها بما يسوغه فى الأذهان من برهان ودليل أو شبيه ونظير وهو يميل إلى معاودة المعنى ومرادفة المفردات وعبارته تتألف من الفقر القصار الموازنة توازن أشطار الشعر بل انها تزيد على الأشطار بتوافق المفردات فى الميزان وعنايته بزينة البديع عناية واضحة وقد إصطنع جملة من ألوان البديع نجد أكثرها وقد دار فى

---

(١) اليتيمة للثعالبى حـ ٣ ص ١٣٩ « طبعة الصاوى » .

كل رسائله ولا تكاد تخلو منه رسالة وذلك مثل الازدواج والسجع والترصيع والجناس والطباق والعناية بتصوير المعنى وتقريبه إلى الحس والاستعانة على ذلك بكثير من التشبيهات والإستعارات والاعتماد على الإقتباس والتضمين والاشارة إلى بعض المعانى العلمية وأحداث التاريخ وأعلامه .

وقد عاصر ابن العميد وجاء بعده كتا - مشهورون يقع بعضهم قريبا منه فى المنزلة الكتابية انلم يساموه ومن هؤلاء الصاحب بن عباد وأبو اسحاق الصابى وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى وأبو الفضل الميكالى وأبوالفتح البستى وأبو منصور الثعالبى وغيرهم ، ولقد كان لابن العميد من الجاه السياسى والمكانة الاجتماعية والاقتدار الكتابى ما دفع الكتاب إلى أن يلقبوه بالأستاذ والرئيس وأن يتخذوه اماما وقدوة وابن العميد يعد أستاذ عصره فى فن التصنيع وقد أقر له ببراعته وفصاحته كل من تصدوا لترجمته وقد هيأه لذلك أن كان ذا عين تصويرية بل كان ذا شغف بفن التصوير نفسه وهذه النزعة التصويرية كان لها أثر مهم فى نثره إذ جعلته نثرا مصورا يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته كما جعله يهتم بألوان البديع الأخرى .

وهكذا يرتبط التصنيع فى الكتابة الديوانية عند ابن العميد بالبيئة والعصر والشخصية الذاتية ذات المقدرة الفائقة والبراعة البارعة والثقافة الواسعة .

يقول عنه مسكويه قيم دار كتبه .. انه أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابا حفظا للغة والغريب وتوسعا فى النحو والعروض وإهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه فى أرفع درجة وأعلى منزله أما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن

ابن العميـــد

علم ثالث من أبرز الأعلام تعرض له ونلقى على أدبه بعض الأضواء لما له من أثر كبير فى النثر الفنى وتطوره فى العصر العباسى الثانى وهو ابن العميد أستاذ كتاب البويهيين الذى يجمع على أستاذيته النقاد ويعقد له لواءها كل من اتصلوا به حتى أولئك الذين كانوا يشنئونه ويبغضونه .

وهو أبو الفضل محمد بن الحسين وهو فارسى من مدينة قم وهى مدينة شيعية وقد نشأ فى بيت أدب وكتابة إذ كان أبوه كاتبا لما كان بن كاكى ثم بعد ذلك تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر وقد لقب بالعميد ، ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتى بلغ ما بلغ وإستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل (١) وكانت وفاته عام ٣٦٠ هـ ولقد كانت طريقة ابن العميد مزاجا بعض عناصره من كتابة الجاحظ وبعضها من كتابة الديوانيين وبعضها مما وجهه إليه عصره وإستعداده الذاتى فهو يولى الموضوع من جهده ما يضاهيه فيقسمه ويرتب أقسامه ويستوفى لكل قسم ما يجليه من معان جزئية ويتناول هذه المعانى بالتدقيق والتشقيق ويتعهدها بالتفريع والتنويع ويولد بعضها من بعض ويقرن بعيدها بما يسوغه فى الأذهان من برهان ودليل أو شبيه ونظير وهو يميل إلى معاودة المعنى ومرادفة المفردات وعبارته تتألف من الفقر القصار الموازنة توازن أشطار الشعر بل انها تزيد على الأشطار بتوافق المفردات فى الميزان وعنايته بزينة البديع عناية واضحة وقد إصطنع جملة من ألوان البديع نجد أكثرها وقد دار فى

---

(١) اليتيمة للثعالبى حـ ٣ ص ١٣٩ « طبعة الصاوى » .

كل رسائله ولا تكاد تخلو منه رسالة وذلك مثل الازدواج والسجع والترصيع والجناس والطباق والعناية بتصوير المعنى وتقريبه إلى الحس والاستعانة على ذلك بكثير من التشبيهات والإستعارات والاعتماد على الإقتباس والتضمين والاشارة إلى بعض المعانى العلمية وأحداث التاريخ وأعلامه .

وقد عاصر ابن العميد وجاء بعده كتا - مشهورون يقع بعضهم قريبا منه فى المنزلة الكتابية انلم يساموه ومن هؤلاء الصاحب بن عباد وأبو اسحاق الصابى وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى وأبو الفضل الميكالى وأبوالفتح البستى وأبو منصور الثعالبى وغيرهم ، ولقد كان لابن العميد من الجاه السياسى والمكانة الاجتماعية والاقتدار الكتابى ما دفع الكتاب إلى أن يلقبوه بالأستاذ والرئيس وأن يتخذوه اماما وقدوة وابن العميد يعد أستاذ عصره فى فن التصنيع وقد أقر له ببراعته وفصاحته كل من تصدوا لترجمته وقد هيأه لذلك أن كان ذا عين تصويرية بل كان ذا شغف بفن التصوير نفسه وهذه النزعة التصويرية كان لها أثر مهم فى نثره إذ جعلته نثرا مصورا يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته كما جعله يهتم بألوان البديع الأخرى .

وهكذا يرتبط التصنيع فى الكتابة الديوانية عند ابن العميد بالبيئة والعصر والشخصية الذاتية ذات المقدرة الفائقة والبراعة البارعة والثقافة الواسعة .

يقول عنه مسكويه قيم دار كتبه .. انه أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابا حفظا للغة والغريب وتوسعا فى النحو والعروض وإهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه فى أرفع درجة وأعلى منزله أما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن

على كتاب العهد السلجوقى عامة ولأنه بلغ من الجـــاه والمنزلة قريبا ممـا بلغه بن العميد وقد ظلت المصطلحات التى يستخدمها فى فنه أساسا يحتذى ونموذجا يقتدى به عند جميـع الكتاب من بعده يقول النويرى [1] : « أن كل فاضل بعد الفاضل فضله » .

* * *

(١) نهاية الأرب للنويرى حـ٨ ص ٢ .

نماذج فى الرسائل

الديوانية والتوقيعات فى العصر العباسى

١ ـ من كتاب عمرو بن مسعده إلى أمير المؤمنين المأمون :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر اجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وإنقياد كفاه تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم... »

. . .

٢ ـ وكتب عمرو بن مسعدة أيضا كتابا إلى بعض العمال يوصيه بشخص على لسان المأمون فى سطر واحد :

« كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حاملة ، والسلام » (١) .

وفى هذين النموذجين تصوير للمهارة العقلية والاحتيال الطريف لأداء المعانى وذلك من سمات الكتابة الديوانية فى العصر العباسى الأول.

. . .

٣ ـ من رسائل ابراهيم الصولى على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

.. أما بعد فان أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود ، وعدل

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٣٩٠ .

على كتاب العهد السلجوقى عامة ولأنه بلغ من الجـــاه والمنزلة قريبا مما بلغه بن العميد وقد ظلت المصطلحات التى يستخدمها فى فنه أساسا يحتذى ونموذجا يقتدى به عند جميع الكتاب من بعده يقول النويرى (١) : « أن كل فاضل بعد الفاضل فضله » .

* * *

(١) نهاية الأرب للنويرى حـ ٨ ص ٢ .

نمـاذج فى الرسائل

الديوانية والتوقيعات فى العصر العباسى

١ ـ من كتاب عمرو بن مسعده إلى أمير المؤمنين المأمون :

« كتـابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر اجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وإنقياد كفـاه تراخت أعطياتهم ، واختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم... »

• • •

٢ ـ وكتب عمرو بن مسعدة أيضا كتابا إلى بعض العمال يوصيه بشخص على لسان المأمون فى سطر واحد :

« كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حاملة ، والسلام » (١) .

وفى هذين النموذجين تصوير للمهارة العقلية والاحتيال الطريف لأداء المعانى وذلك من سمات الكتابة الديوانية فى العصر العباسى الأول.

• • •

٣ ـ من رسائل ابراهيم الصولى على لسان المتوكل لأهـل حمص الخارجين عليه وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

.. أما بعد فان أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود ، وعدل

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٣٩٠ .

به من زيغ ، ولم به من منتشر استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ثم التى لا يقع بجسم الداء غيرها :

أذة ذن لم تغن عقب بعدها .. وعيدا فان لم يغن أغنت عزائمه

. . .

٤ — من رسالة ابن العميد إلى بلكا بن وداد وهى من الرسائل البليغة التى تتمثل فيها براعة ابن العميد :

« كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك واعراض عنك فانك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق كل ما يرعى لك لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدك وأوخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصلاحك وإجتياحك وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لنيئتك وإنصرافك ، ورجاء لمراجعتك وإنعطافك فقد يغرب العقل ثم يئوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فالى رخاء ، وكل غمرة فالى انجلاء ... » (١) .

. . .

(١) يتيمة الدهر للثعالبى — زهر الآداب للحصرى

٥ ـ من كتاب للقاضى الفاضل ينوب عن صلاح الدين الأيوبى فى بشاره الخليفة الناصر العباسى بفتح بيت المقدس:

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقته فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغمصت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تنزف نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمى أو راعفة بالمنون .. »

. . .

٦ ـ ومن الرسائل الديوانية تقليد حسبة كتبه رشيد الدين الوطواط عن ديوان خوارزم :

. أن أولى الأمور بأن تصرف أعنة العناية إلى ترتيب نظامه وتقصر الهمم عن مهمة إتمامه أمر تتعلق به ثبات الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين وهو أمر الاحتساب فإن فيه تثبيت الزائغين عن الحق وتأديب المنهمكين فى الفسق ، وتقوية أعضاء آداب الشرع وسواعدها وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها وينبغى أن يكون متقلد هذا الأمر موصوفا بالديانة معروفا بالصيانة معرضا عن مراصد الريب ، بعيدا عن مواقف التهم والعيب لابسا مدارع السداد سالكا مناهج الرشاد .

والشيخ الامام فلان ـ أدام الله فضله ـ متحل بهذه الخصائص المذكورة والفضائل المشهورة ، ومستظهر فى دولتنا للحقوق الفرضية : ومستشعر للصفات

المرضية ، فقلدناه هذا الأمر الذي هو من مهمات الأعمال ومعظمات الأشغال ، وإعتمدنا فى التقليد والتقلد علي دينه المتين وفضله المبين ، وعقيدته الطاهرة ، وأمانته الظاهرة ...

• • •

٧ ـ ولابن الصيرفى أبى القاسم على بن منجب من شيوخ الكتاب فى الدولة الفاطمية :

« . . وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم ـ كذا ـ عيد النحر ـ سنة كذا وكذا وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة وإقتدارها وأوجب فيه ـ رغبة ورهبة ـ مسارعة النفوس المتخالفة إلى الطاعة وإبتدارها ،وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند إنفجار الفجر ، وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة ، وعدت الاخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمة وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعه ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه ... »

• • •

٨ ـ ولابن قادوس [١] منشور كان ينشر على الناس بوفاء النيل فى الدولة الفاطمية ..

« النعم وإن كانت شاملة للأمم فانها متفاضلة الاقدار والقيم ، فأولاها

---

(١) هو القاضى كافى الكفاة محمود بن أسعدا قادوس من رؤساء باب الانشاء فى الدولة الفاطمية

بشكر تنشر فى الافاق أعلامه واعتداد تحكم بادراك الغايات أحكامه نعمة يشترك فى النفع بها العباد وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد وتلك النعمة : النيل المصرى الذى تبرز به الأرض الجزر فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعات واليابس ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان فسبحان مج جعله سببا لانشار الموات ووفر به مواد الأرزاق والأقوات » .

• • •

١ — من التوقيعات توقيع المنصور لوالى مصر حين شكا نقصان النيل :

« طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد » .

• • •

٢ — ووقع المأمون إلى عامل :

« قد كثر شاكوك ، فاما اعتدلت وما اعتزلت » .

• • •

٣ — ومن توقيعات أحمد بن يوسف ما وجهه إلى عامله ظالم :

« الحق طريق واضح لمن طلبه ، تهديه محجته ، ولا تخاف عثرته ، وتؤمن فى السر مغبته ، فلا تقلن منه ، ولا تعدلن عنه ، فقد بالغت فى مناصحتك فلا تحوجنى إلى معاودتك فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوة الانكار عليك » .

• • •

٤ — ومن التوقيع بآية كريمة من القرآن توقيع المهدى بقوله :

« ولكم فى القصاص حياة » :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

• • •

• ـ وتوقيع طاهر بن الحسين فى قصة مستمنح :

« سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » .

* * *

الكتابة فى عصر المماليك والعثمانيين

حين انقرضت الخلافة من بغداد فى وقعة « هولاكو » ملك التتار سنة ست وخمسين وستمائة هجرية واستولى المغول والأعاجم على بغداد بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يكتب عن ملوك التتار بالمغولية أو الفارسية (١) ولم يلبث التتار أكثر من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدمون الإسلام بتقريب العلماء إليهم وترغيبهم فى التأليف فأفاد ذلك فى أدامة الحركة العلمية فى الجملة وان لم يفد اللغة العربية فائدة تذكر لمكان العجمة منهم .

أما علوم العرب وآدابها فلم يكن لها مكان إلا القاهرة التى أصبحت حصنا حصينا للعرب والعربية فرغم أن حكومتها كانت تركية أو شركسية إلا أن اللغة العربية كانت هى اللغة الرسمية وأصبح العلماء هم رجال الإدارة والكتابة والقضاء والحسبة وغيرها من المناصب الملكية ، واقتصر المماليك على مراتب الجندية والمناصب العسكرية (٢) . غير أن تلك الحال لم تدم أكثر من مدة المماليك وصدر الدولة العثمانية الوارثة لهم ثم أصبحت اللغة التركية العثمانية هى اللغة الرسمية للأعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية فزاحمت العربية مزاحمة ظهر أثرها بينا فى تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية ودخل فى اللغة فى أثناء دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الألفاظ التركية والفارسية .

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٩٤ .
(٢) الوسيط ص ٢٩٠ .

وفى الفترة الأولى اتبعت فى كتابة الرسائل طريقة القاضى الفاضل التى أساسها المعانى الخيالية والتزام السجع وإطالة فقاره ولا سيما الأخيرة منها واللجوء إلى الاستعارات وألوان الطباق ومراعاة النظير والغلو فى التورية والجناس وإن أدى كل ذلك إلى الغموض والتعقيد والاطالة المملة وسخف العبارة . وقد عضد هذه الطريقة من كتاب هذا العصر :

« شهاب الدين محمود الحلبى » و « محيى الدين بن عبد الظاهر » و « ابن فضل الله العمرى » وأولاده . وكان من أكبر ما بليت به الكتابة فى هذا العصر تلك المصطلحات التى فرضت فرضا على الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة وكانت أثرا بارزا من آثار الحياة الفارغة السائدة فى هذا العصر كما كانت مظهرا للجمود والخمول ونضوب القرائح وتوقف موجات الإبداع والخلق والابتكار وتفشى الجهل والسطحية والانشغال بالمظاهر والأشكال الفارغة الجوفاء فقد بالغ الكتاب فى ألقاب التفخيم ونوعوها أنواعا تفوق الحصر حتى صارت هذه الألقاب فى تشعبها تحتاج إلى معجم ضخم يرجع إليه كتاب ديوان الانشاء فيما يوجهونه من خطاب ... فاذا وصفوا شخصا بالسامى خاطبوا من فوقه بالعالى ومن فوقهما بالكريم ومن هو فوقهم جميعا بالشريف وألحقوا بالقاب التفخيم ياء النسب مبالغة فى دلالتها .

وقد بقيت هذه الطريقة مرعية فى مصر والشام حتى نهاية دولة المماليك وصدر حكومة العثمانيين .

وفى الفترة الثانية حين غلبت اللغة التركية على كتابة الدواوين أخذ شأن الكتابة العربية فى الاضمحلال وتناقصت الرغبة فى احسان صناعتها، وقل النابغون فيها ولم يعد فى استطاعة الكاتب العربى اصابة وجوه البلاغة فضلا عن احسانه

استعمال المحسنات اللفظية فأصبحت الكتابة مجرد فقار من السجع المتكلف خالية من كل مزية إلا المبالغة والتهويل بل قد عجز الكتاب فى أواخر هذا العصر أن يكتبوا لاخوانهم من انشائهم (١) فوضعت دواوين كتابية تشمل عدة صور من المكاتبات المعتادة يستعير منها المراسل صورة تناسب غرضه تارة أو لا تناسبه تارات أخرى (١) ومن أشهر هذه الكتب كتاب .. بديع الإنشاء والصفات فى المكاتبات والمراسلات « لزين الدين مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ . ومن استقل بفكره من الكتاب فى هذه الفترة جاء بالغث المستكره الذى تعافه النفوس وتنبويه الأسماع . حقا لقد هبطت الكتابة فى هذا العصر العثمانى هبوطا فاحشا الأمر الذى جعل المشتغلين بتأريخ الأدب لا يطيلون الكلام عن النثر الفنى فى هذا العصر لأنه ليس من منابع الكتابة الإنشائية .

وإذا كان النويرى قد جأر بالشكوى من دخول من لايصلح فى الكتابة بين أهلها فى عصره المملوكى إذ يقول:« وقد اتسع الخرق فى ذلك ودخل فى الكتابه من لا يعرفها البتة ، وقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه فى الكتابة وتوسل بمختلف الوسائل إلى أن كتب فى ديوان الرسائل أنه كان لا يحسن كتابة ما يملى عليه فضلا عن إنشاء الكلام الجيد .. » (٢) .

أقول إذا كان النويرى قد جأر بهذه الشكوى فى عصره فان الشكوى كانت أعم وأشمل والمصيبة فيها أدهى وأمر وأخطر فى عهد العثمانيين : فراغ طويل

---

(١) الوسيط ص ٢٩٦ .

(١) الأدب فى عصر المماليك والأتراك العثمانيين لعمر الميرغنى ص ٥٤ « مذكرة » .

(٣) الأدب فى عصر المماليك والأتراك العثمانيين ص ١٩ .

وجمود مرير وجهـل بشع وثقافة فى حـكم العدم واضطراب فى الحيـاة وتأخر وفوضى شـاملة وسيادة لغير لغة العرب وتسلط من غير أبنـاء العروبة وقصور للجهلاء الهابطين .

ومن أشهر الـكتاب فى هذا العصر بعهدية المملوكي والعثمانى :

يحيى الدين بن عبد الظاهر الذى يتولى شئون الـكتابة فى عهد الملك الظاهر بيبرس ثم فى عهد ولده الملك السيد محمد بركة ثم ولده العادل ثم فى عهد الملك المنصور قلاوون . ومن مشاهير الـكتاب أيضا فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر وشهاب الدين محمود الحلبى الذى ولى رياسة ديوان الإنشاء فى حكم الملك الناصر بن قلاوون . ومحيى الدين بن فضل الله العمرى الذى رأس ديوان الإنشاء هو وأخواه شهاب الدين وشرف الدين ابنى فضل الله العمرى فى عهـد الناصر بن قلاوون . وشهاب الدين بن أحمد القلقشندى الذى تولى ديوان الإنشاء بمصر فى عهد السلطان سيف الدين برقوق والشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى الذى تولى ديوان الانشاء بصفد والقاهرة وحلب .

* * *

نماذج من كتابة الرسائل فى هذا العصر

١ — من رسائل القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر الذى يعتبر من واضعى اصطلاح الإنشاء ونظام ديوانه الذى بقى مرعيا فى مصر والشام حتى نسخه النظام التركى العثمانى يقول محيى الدين على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن فى تعزيته :

« ولنا — والشكر لله — صبر جميل لا نأسف معه على فائت ، ولا نأسى على مفقود ، وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقول المبشر به هذا مولى مولود . وليست الابل بأغلظ اكبادا ممن له قلب لا يبالى بالصدمات ، كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرت أو جلت ، ولا بالأزمات ان هى توالت أو تولت ، ولا بالجفون ان ألقت ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت ، ويخاف من الدهر من لاحلب أشطره ويأسف على الفائت من لابات بنبأ الخطوب الخطرة ... » .

• • •

٢ — من رسالة لابن فضل الله العمرى على لسان سلطانه إلى نائب الشام مع هدية من طيور صيد جارحة .

« صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح ، وثناء يطير إليه وكيف لاتطير قائمة بجناح ، ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورد تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى رسمه ، وجرت عادة صدقتنا الشريفة أن تحسب فى قسمة ، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار ، ولا يوقد للقرى فى غير حماليقها جذوة نار ، ولا تؤم طيرا إلا وترش الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار ،

وإلى طائركم لهـا من فتك أخذ الطير من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيا بأحسنه » .

• • •

٣ ـ وللقاضى يحيى الدين بن عبد الظاهر من كتاب كتبه إلى صاحب اليمن عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، بشرا بفتح صافيتا :

« فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغـدا جاذبا بضبـع الشام وأخذا بمخانق بلاد الاسلام ، وشللا فى يد البلاد وشجا فى صدى العباد تنقص من عشه صقور الأعداء الكاسرة وترتاع من سطوتهـا قلوب الجيوش الطائرة وتريض بأرضه آساد تحمى تلك الآجام . وتفوق من قسيه سهام تصمى مفوقات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عد يد وهم صاغرون ، ويصطفى كرام أموالهم وهم صابون لا مصابرون ، كم شـكت منه حماة قلة الانصاف وكم خافته معرة وما من معرة خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى وتبـكى بمدمع منهرها من تأثير أثاره من عصيانها وناهيك بمدمع العاصى حتى نبه الله ألحاظ سيوف الاسلام من جفونهـا ، ووفى النصرة ما وجب من ديونهـا وذاك بأنا قصدنا فسيح ربعه ونزلنا ونازلنا محمى صقعه وختمنا بنصالنا على قلبه وسمعه ... » .

• • •

٤ ـ من رسالة للقلقشندى عن الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس فى ذكر وقعة تيمور لنك .

« وتحركنا فى الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها هصر ،

ولا يظن بها على كثرة الأعداد كسر ، ولم نزل نحث السير ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها مستمطرين النصرة فى أوائل حركتنا وأواخرها، وإنضم من عساكر الشام وعربانها وتركمانها الزائد على العدد عشراتها مالا يتقطع له مدد ، ولا يدخى تحت حصر ولا عدد وأقبل القوم فى لفيف كالجراد المنتشر ، وأمواج البحر التى لا تنحصر من أجناس مختلفة وجموع على تباين الأنواع مؤتلفه وتواءى الجمعان فى أفسح مكان ورأى كل قبيل الآخر رأى العين وليس الخبر كالعيان ، واعتد الفريقان للنزال واحتفروا خنادق للاحتراس ، وتبوأنا مقاعد للقتال ، ولم يبق إلا المبارزة والتقاء الصفوف والمناجزة إذ ورد وارد من جهتهم يطلب الصلح والموادعة والجنوح إلى السلم وقطع المنازعة فأجبناهم بالاجابة ورأينا أن حقن الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأى إصابة وكتبنا إليهم فى ضمن الجواب .

لما أتانا منكم قاصد ... يسأل فى الصلح وكيف القتال
قلنا له : نعم الذى قلته ... والصلح خير وأجبنا السؤال

* * *

الكتابة الديوانية فى الأندلس

لقد كانت بلاد المغرب والأندلس بأيدى نواب الخلفاء منذ الفتح الاسلامى فى خلافة عثمان ، ولم تكن هناك عناية بالكتابة أو بديوان الانشاء وذلك لغلبة البداوة والفطرة وغاية ما كان يحدث هو المكاتبة إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك . وحين قامت دولة بنى العباس فى المشرق هرب طائفة من بنى أمية إلى بلاد المغرب ثم أمكنتهم الفرصة من الاستيلاء على الأندلس من أيدى نواب الخلفاء فملكوه وصاروا ينصبون خليفة بعد خليفة متبعين ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة وإقامة شعائرها وإتخاذ ديوان الانشاء وإستخدام بلغاء الكتاب ... الخ.

وبعد ذلك تقاصر أمرهم شيئا فشيئا وتمكن منهم المستبدون بالأمر إلى أن انقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب ... ثم تعاقبت بعد ذلك طواف الملوك والدول وكان حال ديوان الانشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحضارة أو البداوة (١) ... ويمكن أن نقول على وجه التقريب :

أن الكتابة فى الأندلس مرت فى أطوار ثلاثة :

الطور الأول :

هو طور الفطرة والسذاجة وقد إستغرق هذا الطور مدة طويلة فى أول الفتح سنة ٩٢ هـ إلى أوائل القرن الرابع الهجرى .. لم يكن هناك من يتفرغ للكتابة بل كانت الكتابة عملا يقوم به أى عربى اللسان وقد يكتب الحاكم بنفسه وبخط يده أو قد يملى على واحد ممن بحضرته فيخط بقلمه وبين يديه ، وقد كانت الكتابة فى هذا الطور فطرية ساذجة واضحة المعانى سهلة الألفاظ قريبة من لغة التخاطب

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٩٣ .

بعيدة عن الزخرف والصنعة تماما كالحياة التى كانت سائدة ببساطة ويسر ووضوح وجد . وفكر ميسور بلا عمق ولا غموض ولا تفلسف ولا اغراب ...

الطور الثانى :

طور قوة الكتابة الأندلسية وتدظهرت بواكير هذه القوة منذ القرن الثالث وتكاملت فى مطالع القرن الرابع وبخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر .. ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ حين شهدت البلاد عهدا من الإزدهار الحضارى والعلمى والأدبى وحين إزدهر النشاط الفنى والثقافى فى ميدان الكتابة : فقد اتسعت مطالب الدولة وإشتدت حاجتهـا إلى استخدام الكتابة فى تنظيم شئونها وأصبحت بحيث لا يستطيع أن يقوم بهذه الأعباء إلا المتفرغون للكتابة من المختصين بها ومن هنا إستحالت الكتابة إلى فن يحفل به من يعمل فى حقله ويتوفر على اجادته وإتقانه فجرت الأقلام تدير جهاز الحكم وتصرف شئون البلاد وتسجل نبضات العقول وسبحات الأفكار وخطرات النفوس وإختلاجات المشاعر .

ولقد كانت خصائص الكتابة ودقائقها مستمدة فى جملتها من المشرق ولقد كانت إمتازت الكتابة فى هذا الطور بوضوح المعانى وعدم التعمق فيها والألفاظ الشعرية المؤثرة فكثيرا ما كانوا يعمدون إلى أبيات الشعر يفضون نظمها وينثرون ألفاظها ، والأسلوب يميل إلى الأطناب والفقرات قصار يتخللها كثير من الحكم والأمثال وهم ميالون إلى الزخارف وتجميل العبارات فاشتد إقبالهم على السجع استجابة لعوامل الترف ومظاهر التأنق والجمال التى كانت سائدة فى المجتمع الأندلسى آنذاك واتباعا لما عرف عن المشارقة ومذهبهم فى الكتابة الفنية فى هذه الفترة ونظرا لأنهم شعراء بالفطرة قبل أن يكونوا كتابا فقد غلب عليهم الخيال الشعرى وهم يعنون بالغريب والإقتباس من القرآن الكريم كما عنوا كثيرا بحل

الشعر وتضمينه ولم تصل كتابتهم إلى تلك الدرجة البالغة من التعقيد الذى كان شائعا آنذاك عند الكتاب المشارقة فالأحداث وطبيعة الحياة عندهم لم تمكنهم من ذلك وخيرا أراد الله بهم .

الطور الثالث :

وبداية هذا الطور تبتدىء منذ أن صارت الأندلس ولاية تابعة لشمال أفريقية ٤٨٤ هـ ثم امتدت به الأيام حتى عهد دولة بنى الأحمر وصاحبها إلى أن زال سلطانها وزال معه كل سلطان للغة العربية هناك سنة ٨٩٧ هـ ويعتبر هذا الطور نهاية المطاف للكتابة العربية بالأندلس .

وفى عهد المرابطين أصبح للفقهاء شأن كبير كما كان لهم أثر واسع فى الحياة الأندلسية فى هذه المرحلة فاضطهدوا الفلاسفة ورموهم بالزندقة وتعقبوهم فى كل مكان . وفى عهد الموحدين كان الحكام أوسع عقولا وتفكيرا الأمر الذى أدى إلى تقدم فى الحركة العقلية والفكرية دون أن يؤدى ذلك إلى تقدم فى الحركة الأدبيه .. لقد أدف سيطرة الفقهاء أول الأمر إلى جمود النثر وطبعه بالطابع العلمى بما فيه من إستخدام للمصطلحات العلمية مع شدة الاقبال على بعض البديعيات والاهتمام بالزخارف والتعقيد والتصعيب فى تناول السجع والتكلف فيه وعدم الاهتمام بجانب المعانى متبعين الطريقة الفاضلية التى جنت على الكتابة والكتاب فى المشرق وأكثر من ذلك فلم تعدهناك قدرة على الانشاء والابتكار والخلق والابداع بل أن الكتاب مالوا إلى التعبير بالأساليب المحفوظة التى لاجدوى فيها ولا غناء ... حقا فان الأدب صورة عصره وأثر من آثار الاتجاهات الفكرية والحضارية فى عهده كما أنه مرآة تنعكس عليها مظاهر الثقافة السائدة فى رقيها وإزدهارها أو ضعفها وهبوطها .

* * *

من أشهر الكتاب فى الأندلس

أبو الوليد بن زيدون ، والوزير أبو حفص بن برد الأصفر الأندلسى وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم ، والوزير أبو القاسم محمدوعبد المهيمن كاتب السلطان أبى الحسن المرينى، وذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين ابن الخطيب ومنهم يوسف الفهرى وهشام بن عبد العزيز ، وأحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي وأبو عامر احمد بن أبى مروان بن شهيد والفتح بن خاقان ومنهم الأديب الشاعر والكاتب أبو عامر بن عقال من كتاب بنى قاسم من ملوك الطوائف ثم لابراهيم بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين .

نماذج من الرسائل تمثل الأطوار الثلاثة للكتابة الفنية فى الأندلس :

١ ـ كتب يوسف الفهرى آخر الولاة التابعين لبغداد يهدد عبد الرحمن الداخل ويطمعه فى الانضواء تحت لوائه :

« أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأشب من تأشب اليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التى كذبوا الله فينا وكذبونا وبه جل وعلا نستعين عليهم .

ولقد كانوا معنا فى ذرا كنف ورفاهة عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط .. » .

. . .

٢ ـ على رسالة من بدر مولى عبد الرحمن الداخل يستعطفه بعد هجر وقع عبد الرحمن :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتا أتيت بما يهدم كل متات مشيد بما تمن به مما قد أضجر الأسماع تكراره وقدحت فى النفوس اعادته مما استخرنا الله من أجله على أمرنا باستئصال مالك وزدنا فى هجرك وابعادك وهضنا جناح ادلالك ..» .

• • •

٣ ـ وكتب ابن زيدون من رسالته الجدية التى يستعطف بها ابن جهور أحد ملوك الطوائف :

« يامولاى وسيدى الذى ودادى له واعتمادى عليه واعتدادى به، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وأرى زند الأمل ثابت عهد النعمة أن سلبتنى ـ أعزك الله ـ لباس نعمائك وعطلتنى من حلى ايناسك واظمأتنى إلى برود اسعافك ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك وأحسن الجماد باستحمادى اليك فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمنى فى أمنيته والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

• • •

٤ ـ وكتب لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس :

« الخلافة التى ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف واستقلت

مبانى فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم الاعتراف ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والاكناف فامتزاجنا بعلائها المنيف وولائها الشريف كما امتزج الماء والسلاف وثناؤنا على مجدها الكريم وفضلها العميم كما تأرجت الرياض الأفواف لما زارها الغمام الوكاف ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علائها يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميقة لا تحصره الحدود ولاتدركه الأوصاف وان عذر فى التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير الحق والانصاف » (١) .

• • •

٥ ـ وكتب أبو عامر بن عقال عن الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين يصف اجتياز أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة :

« وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه ـ أيده الله تعالى ـ من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه وصار حيه ميتا وهدره صمتا وجباله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وضعف تعاطيه وعقد السلم بين موجه وشاطيه فعبر آمنا من سطواته ممتلكا لصهواته على جواد يقطع الجروف لمحا ويكاد يسبق الريح سبحا لم يحمل لجاما ولا سرجا ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجا عنانه فى رجله وهدب العين يحكى بعض شكله فلله دره من جواد له جسم وليس له فؤاد يخرق الهواء ولا يرهبه ويركب الماء ولا يشربه » .

• • •

---

(١) الرسالة بأكملها فى صبح الأعشى حـ ٦ ص ٥٣٦ وما بعدها .

٦ ــ وكتب الفتح بن خاقان فى بعض العلماء وكان هجاء مقذعا وطريقته تمثل بوضوح الطور الثالث :

« هو رمد جفن الدين ، و كمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفا وجنونا ، وهجر مفروضا ومسنونا ، وضل فيما يشرع ، ولا يأخذ فى غير الأباطيل ولا مشرع ، ولا يرد سوى الغمة ولا يكرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابه ، ولا أظهر مخيلة انابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده توار فى جدث » .

* * *

صورة مكملة للكتابة الديوانية فى مصر

من المعلوم أن مصر منذ الفتح الاسلامى عام ٦٤٠م وإلى بداية الدولة الطولونية عام ٢٤٥ هـ لم تكن بها عناية بديوان الانشاء ولا إهتمام بالكتابة الديوانية بل كان الأمر يجرى على ما كان عليه عهد الخلفاء الراشدين حيث يتولى الوالى أو الحاكم المسئول الكتابة بنفسه فى شأن من شئون السياسة والحكم وتنظيم الولاية والاقليم أو يقوم الوالى باملاء رسالته على من يجيد الكتابة فيكتبها ثم يوقعها هو بعد ذلك ، ولاينبغى أن يفهم من ذلك أنه لم يكن فى مصر آنذاك كتابة ولا كتاب فالمقريزى فى خططه يقرر(١) أنه لما كانت مصر امارة كان بها ديوان البريد ويقال لمتوليه صاحب البريد وهو الذى يطالع بأخبار مصر كما كان لبعض أمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل .. والجهشيارى يقرر(٢) أن الكتاب الرسميين العاملين بدواوين مصر فى العصر الأموى وأوائل العباسى كانوا غالبا من غير المصريين ويذكر منهم : يناسى بن خمايا من الرها فى عهد عبد العزيز بن مروان والى مصر، وجابر بن داود الفارسى الأصل وقد استكتبه الخصيب ، واسحاق بن أبى ربعى اصطحبه عبد الله بن طاهر معه حين ولى أمر مصر ليكون كاتبه .

ومنذ عهد الدولة الطولونية ترتب ديوان الانشاء بها وانتظم أمر المكاتبات والولايات وازدهرت الكتابة الديوانية يقول صبح الأعشى(٣) :

---

(١) خطط المقريزى حـ ٢ ص ٢٢٦

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣٤ .

(٣) صبح الأعشى حـ ١١ ص ٢٨ .

.. ولما أخـذ احمد بن طولون فى تدبير الملك وإقامة شعائر السلطنة بالديار المصرية وشمخ بها سلطانه وإرتفع بها شأنه أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عبد كان فأقام منار ديوان الانشاء ورفع مقداره » وقد استعان ابن طولون بجماعة من كتاب العراق منهم أبو عبدالله الواسطى ويعقوب بن اسحاق وأحمد بن أيمن وضم إليهم كتابا آخرين من كتاب مصر على رأسهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر وأخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى وهم من عقب عبد الحميد الكاتب (١) .

لقد نهضت الكتابة الديوانية فى هذا العهد نهضة استمدت أصولها من التطور الفكرى والحضارى والإزدهار الثقافى والتقدم العلمى فى عهد الدولة الطولونية . وبعد ذلك ضعف شأن الكتابة وديوان الانشاء حتى نهاية الدولة الأخشيدية وفى عهد الدولة الفاطمية وجه مزيد إهتمام وعناية بديوان الانشاء وكتابه فارتفع قدره، وعلا شأنه ، وشاع فى الآفاق ذكره (٢) .

فنهضت الكتابة الديوانية وإزدهرت ومن بين كتاب هذه الفترة الزاهرة أبو المنصور بن سوردين النصرانى والقاضى أبو الطاهر البهزكى والقاضى ولى الدين بن خيران وأبو المكارم ابن أبى أسامة والقاضى الموفق بن الخلال والقاضى الفاضل وابن الشخباء وقد استمر الحال على ذلك خلال الدولة الأيوبية حيث كان القاضى الفاضل رئيسا لديوان الانشاء فى عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، كما تولى الصاحب بهاء الدين زهير أمر ديوان الانشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن بعده تولى ديوان الانشاء الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان وكما ذكرت فى

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٨٢ .

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ٩٥ .

حديثى عن العصر العباسى الثانى فان الروح والريحان للكتابة الديوانية كانا فى مصر وخاصة فى عهد الفاطميين ومن بعدهم من الأيوبيين وذلك يرتبط إرتباطا وثيقا بالنهضة العلمية الواسعة والإزدهار الثقافى المتعدد الجوانب والتقدم الحضارى فى الحياة الاجتماعية وشيوع الروح الفكرى والفلسفى مما كان له أكبر الأثر فى بلوغ الكتابة مبلغا عظيما من الرقى والاكتمال من إهتمام بالمعانى وبراعة فى عرضها وتأنق فى التعبير وروعة فى التصوير وإهتمام بالمحسنات وجرى وراء الزخارف والبديع وحشد للمصلحات الأمر الذى تطوز فيما بعد إلى مبالغة بغيضة فى استعمال المحسنات والتفنن فيها ولو على حساب المعانى . كما ذكرت سابقا .

وفى عهد المماليك كانت الطريقة الفاضلية هى السائدة فى الكتابة الديوانية وكان كتاب ذلك العهد مقلدين تقليدا شديدا لفن القاضى الفاضل مع مبالغة فى التصنع والتعقيد وإسراف فى الزخارف والبديع والاقتباس والتضمين وغرقوا الى آذانهم فى فيض هذه الاشكال حتى أصبحت كتاباتهم جوفاء لا تتضمن جديدا ولا تحوى فناء ولا تنبىء عن نهضة بل على العكس من ذلك كانت البوادر تؤكد جمودا مريرا يتعرض له النثر الفنى فى عهد وشيك ويطول ويعم ظلامه وقد كان ذلك العهد هو العهد العثمانى عهد العقم والجمود والعجز والضعف عهد النكسة العلمية والأدبية والفنية : العهد الذى أغلقت فيه الدواوين التى كانت تخرج كبار الكتاب : العهد الذى توارت فيه اللغة العربية وأصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية السائدة .. ويا له من عهد انطفأ فيه الشعاع وصارت مصر والشام وباقى الأقطار العربية ولايات عثمانية محكومة بولاة ترك لا يعنيهم من أمرها إلا أن تخضع لسلطان الباب العالى ، فتدهورت الحياة العلمية والفكرية والأدبية والثقافية ونضبت القرائح وفسدت الأذواق لولا بصيص من نور بقى يشع من من الأزهر ويحفظ العلم واللغة من الضياع وقد أثرت هذه الحياة بمختلف مظاهرها

على الأدب شعره و نثره فاختنقت فيه بقية الروح التى منحته أنفاس حياة فى العصر المملوكى وإنقطعت الروابط التى كانت تصله بماضى الأدب العربى فى عصور إزدهاره وإنحدر إلى غاية الضعف والركاكة والابتذال والاغراق فى الصناعة اللفظية والزخوف الشكلى بغباء وجهل وعجز مع شيوع اللحن والوقوع فى الأخطاء (١) .

• • •

(١) فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ص ١١ وما بعدها .

الكتابة الديوانية فى عصر النهضة الحديثة

ومذاهبها الفنية فى ضوء الاتجاهات الفكرية والحضارية

بدأت النهضة العربية الحديثة مع القرن التاسع عشر مسايرة ليقظة الوعى القومى الذى استمد طاقاته من عوامل متعددة يمكن أن نجملها فى أمور أهمها الاتصال بالغرب عن طريق الترجمة والبعثات العلمية والمستشرقين والاتصال بحضارتنا العربية العريقة واكتشاف جذورنا الأصيله الضاربة فى أعماق الزمن الزمن على مسار التاريخ والنهضة العلمية الواسعة وانتشار المطابع وإنشاء المكتبات وازدهار الصحافة ورقيها وامتداد آثارها وتأسيس الجمعيات العلمية والأدبية والمجامع اللغوية وقيام المسرح التمثيلى بدوره الفعال فى شتى المجالات والدور الحيوى الخطير الذى تقوم به الاذاعة المسموعة والمرئية والاهتمام بالحكم وتنظيم أجهزته وتطوير أداته وخاصة بعد قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو عام اثنين وخمسين وتسعمائة وألف حيث تطورت البلاد تطورا عظيما فى شتى النواحى مما كان له آثار بعيدة المدى فى تحقيق النهضة الأدبية المعاصرة .

حقا لقد أقبل العصر الحديث عصر النهضة والتقدم فشرعت الأمور تتغير فى مصر بوجه خاص فلقد تهيأ لها ـ كما ذكرت ـ من أسباب القوة ما أنحى على ضعفها فازاله، ولوى على عثارها فأقاله فأخذت الغضارة تدب فى عودها والنضارة تبدو على محياها حتى تهيأت لها أسباب الاكتمال فأينعت وأزهرت ممتدة الأغصان وارفة الظلال طيبة الثمار . لكن ذلك كله لم يكن دفعة واحدة ولم يأت جملة بل صار فى مسار طبيعى من النمو والتطور والارتقاء وكانت الحركة الأدبية فى مسارها خاضعة للاتجاهات الفكرية والحضارة متفاعلة معها ومتأثرة بها تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

لقد كانت هنـاك معالم بارزة على طريق تطور الكتابة الديوانية فى العصر الحديث تتضح فيما يلى : ـ

منذ الحمله الفرنسية والى عهد استيلاء محمد على على حكم مصر :

كانت هذه الفترة خمود وجمود وصلت فيها الكتابة إلى نهاية ما انتابها من ضعف وضيق وهزال غرضـا ومعنى وأسلوبا فلم تكن عوامل النهضة قد تكامل نضجهـا وكانت آثار التخلف والجمود هى السائدة المسيطرة ومعنى ذلك أن الكتابة الديوانية كانت لا تزال ترسف فى قيود الضعف والركاكة والتفـاهة تمشيا مع الاتجاهات التى كانت سائدة والأوضاع الاجتماعية القلقة المضطربة المتخلفة ولعل خير ما يمكن أن نستشهد به ما كان يذيعـه الكتاب عن لسان نابليون على المصريين من المنشورات المحررة باللغة العربية . وهذا نموذج منها :

« والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمـة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال: أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله إجـــلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ... »[1] .

* * *

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الحـديث : أحمد شفيع ومحمود رزق سليم ص ٥٤ « مذكرة » .

منذ عهد محمد علي وحتى عهد اسماعيل

فى هذه الفترة جدت بعض العوامل التى كان لها أثر بين فى انهاض الكتابة منها : اتخاذ اللغة العربية أداة للتفاهم والكتابة فى دواوين الحكومة بدلا من التركية التى لم يستطع محمد على أن يعلى رايتها أو يفرض سيطرتها ، كما كانت اللغة العربية هى أداة التعليم فى غالبية المدارس وبهذا طرأ النضج على الكتابة العربية وأخذت تدخل فى دور النقاهة تؤازرها وتحيط بها نهضة تعليمية واسعة بعثت الروح فى هذه الأمة وحركت فيها بواعث التطور ودواعي التحفز والطموح مع التسليم بأن نهضة محمد على كانت نهضة علمية عسكرية لا شأن لها بالناحية الأدبية فلم تكن هناك عناية مبذولة فى سبيل اللغة لذاتها بل اتخذت هذه اللغة أداة للتعبير عن المعانى الضرورية فحسب وأى عبارة تفهم تجزىء وتكفى ...

ومهما يكن الأمر فقد اتسعد أغراض الكتابة فكتبت بها الرسائل الديوانية والاخوانية كما كانت اللغة العربية أداة التعليم والصحافة والترجمة .. ولقد كان للاتصال بالغرب والاطلاع على علومه أثر بالغ فى نقل بعض الأفكار والمصطلحات غير أن أسلوب الكتابة ظل ركيكا بعيدا عن الصبغة الأدبية والنزعة الفنية الأصيلة مع تقيدها بأنواع من البديع والسجع استجابة دواعي التقليد والتأثر بالعصر السابق وغلبة العامية خاصة على لغة المترجمين وقد اتخذ محمد على بعض كتابه من مثقفى الأقباط واشتهر من بينهم كاتبه المعلم غالى الذى كان رئيسا للكتاب وكاتم السر لمحمد على (١) .

ومن نماذج الكتابة الديوانية فى هذه الفترة : هذه الرسالة التى وجهت إلى أعضاء البعثة المصرية بفرنسا على لسان محمد على وجاء فيها :

---

(١) الوسيط ص ٣٢٨ .

« قدوة الأماثل الكرام ، والأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوبة فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة وما فهمنا منها شيئًا ، وانتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا ... فيأفندية ماهو مأمولنا منكم فكان ينبغي لهذا الوقت أن كل راحد منكم يرسل شيئًا من ثمار شغله وآثار عمله ... » .

* * *

منذ عهـــد اسماعيل

تعددت أسباب رقى الكتابة على اختلاف أنواعها فقد انتشرت المدارس شيئا فشيئا وتعددت ألوانها وكثر طلابها ، واحتلت اللغـــة العربية دور التعليم ، وأصبحت دروس الانشاء ، واعداد البحوث بعبارة عربية سليمة احدى وسائل التعليم ومواده ، هـذا إلى جانب انتعاش حركة الترجمة والتأليف وحيوية الحركة الفكرية والسياسية والنهضة الصحفية وبهـذا اتسعت أغراض الكتابة وارتقى النثر الكتابى وتهذبت عبارته وتخلصت شيئا فشيئا من قيود البديع والسجع وكثرت معانيه وتجددت وانصرفت عناية الكتاب إلى الابتكار فى المعانى واجادة ادائها ...

فمن حيث الكتابة الديوانية وهى الكتابة الحكومية الرسمية من رسائل ومنشورات وبحوث وعهود ونحو ذلك مما يقتضيه العمل الحكومى نرى أنه قد روعى فيها أول العصر شىء من الأطناب وبعض ألوان البديع والسجع مع قلة الاكتراث بالعامى من الكلمات والسقيم من العبارات .

وفى عهد اسماعيل ظهرت طائفة من الأدباء والمثقفين أخذت الحكومة تعهد إلى بعضهم بالاشراف على كتابة الدواوين فارتقت أساليبها بعض الرقى وبدا عليها شىء من الرونق والنضارة وعادت إلى مثل ما كانت عليه الكتابة الديوانية فى العصر المملوكى بل ربما كانت أجزل منها وأقل تكلفا حيث أخذ البديع والسجع يزايلانها شيئا فشيئا مع عناية واضحة بالالقاب من نحو .. « باشا » .. « بك » « أفندى » « عزتلو » « عطوفتلو » و « ميرميران » و « روملى بكلر بكى . والوزارة .. (١) .

---

(١) الرتب والألقاب المصرية : تيمور ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

وقد ظهرت الدعوة واضحة قوية إلى التخفف من القيود فى الكتابة الإنشائية مما كان له أعظم الأثر فى رقى الأساليب والنهوض بها يقول أديب اسحاق [١] : .. الكتابة صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح وأسلوب صريح فهى ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الانشاء ، والوضع الذى يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التى يحصل بها ذلك وهو الأسلوب « ويقول أيضا [٢] » النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة ألا ما يكون من وضع الكلام فى مواضعه وإيثار ما يألفه السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام بل هو الأصل فى الانشاء وما سواه فرع منه فانه طبيعى أصيل وما دونه صناعى حادث والأصل فى الطبيعة لا محالة يدل على ذلك أن هذا الكلام المقفى الذى يسمونه سجعا لا يكاد يوجد فى غير اللسان العربى فلو كان طبيعيا لوجب أن يكون فى جميع اللغات أو فى المعدودة منها أصولا لا أقل .

وقد هاجم الكاتب القدير عبد الله فكرى طائفة الجهلة من الكتاب الذين اندسوا فى دواوين الحكومة وتصوروا العمل فيها فيقول : [٣] « فاذا كتب أحدهم رقعة لحاجة أرادها ، أو ابتلى بكتب غير هذه التى اعتادها فلا تسل عن الغلط الواضح ، واللحن الفاضح ، والذهن الغائب والفهم العائب « ثم يقول » وقد زارنى أحدهم فى الديوان لبعض شأنه وأعطانى رقعة كتبها لحاجة بخط بنانه فاذا رقعته نموذج الرقاعة ، وتمثال الشناعة ، ومجموع البلاهة ، وينبوع العى

---

(١) مجالى الفرر حـ ٢ ص ١٧٧ .
(٢) مجالى الفرر حـ٢ ص ٦ .
(٣) أعلام العرب : عبد الله فكرى لمحمد عبد الغنى حسن ص ١٤٤ .

والفهاهة .. « وعبد الله فكرى كان يطمح إلى أن يصل بالكتابة إلى ما يشبه عهد الخوارزمى فى العصر العباسى . وللحقيقة كلمة أقولها : لقد ظهر فى هذه الفترة طائفة من أجلاء الكتابة كانت لها أفضال بالغة وآثار شاملة فى النهوض بالكتابة الفنية والرقى بها ومواجهة عوامل الضعف والتدهور والتفكك والانهيار فى فترة حرجة مرت بها البلاد ــ وهى فترة الاحتلال .

* * *

فترة الاحتـــلال

فعندما تغلغلت الروح الأجنبيه الاستعمارية فى مصالح الحكومة ودواوينها وتصدى للرئاسة والحكم فئات من الأجانب ، وعندما فترت العناية باللغة العربية وبالتعليم عموما ساءت الأحوال وهبطت الكتابة الإنشائية فى الدواوين وتولى العمل فيها فئات من الناشئين التى لم تنل قسطا محمودا من التعليم والمعرفة باللغة وأساليبها بل كان منهم من يتظرف بالجهل بالعربية ويتفاخر بمعرفة الأجنبية وحدها ، ويتراخى عن تحرى وجوب الصواب فى الكتابة وذلك كله كان له أوخم العواقب فيما يتعلق بالكتابة الديوانية فى معظم دواوين الدولة وبخاصة فى أقسام الشرطة وادارات القرعة العسكرية والطرق الحديدية والبريد وغيرها من الدواوين ذات الصلة المباشرة بالجماهير (١) . ولعل فى النص الذى أوردته لعبد الله فكرى ما يشير إلى ذلك .

على أنه للانصاف والحق نقرر أنه كانت هناك بعض الدواوين الممتازة فى الدولة كان لها سمت الأصالة والقوة والابداع مثل :

ديوان الملك ، ودواوين الوزارة ومكاتبها ودور القضاء فان ما كان يصدر عنها من أحاديث وبيانات وحيثيات ورسائل ومنشورات وأوامر واشارات كان يكتب عادة بعبارة عربية سليمة جديدة فيها أناقه وحسن اختيار ودقة أداة ووضوح معنى وجمال تصوير مع الترتيب وأحكام التسلسل الفكرى وكانت تتراوح بين الايجاز والاطناب حسب المناسبات كما كان يعنى فى المكاتبات الرسمية بذكر الألقاب والتفنن والابتكار فيها ...

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الحديث : أحمد شفيع ومحمود رزق سليم ص ٥٨ .

ومرة أخرى احقاقا للحق وتقريرا للواقع أشير إلى أنه قد كان لكثير من الشخصيات الأدبية التى عملت فى الحقل الحكومى الرسمى أو فى المجال الحزبى أو الميدان الصحفى أو كانوا على اتصال بالعمل الوطنى والاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى.. كان لكل هؤلاء فضل كبير وأثر عظيم فى النهضة الأدبية وازدهار الكتابة الفنية وتماسكها والنهوض بها رغم كل الظروف الصعبة التى احاطت بها فلقد كان يصدر عنهم بيانات وتوجيهات ورسائل ومقالات ومنشورات تعتبر غاية فى الروعة والابانة والبلاغة وقوة التأثير حيث كانت كتاباتهم خير نموذج يحتذى وأحسن مثال يتبع لجماعة الكتاب من تقدم به الزمن ومن تأخر خاصة أولئك الذين يهتمون بتجديد أساليبهم والارتفاع بها إلى مستوى جيد أصيل

وأذكر الآن بعض هذه الأسماء اللامعة لكبار الكتاب منذ أول العهد وقد كانت بأيديهم قيادة النهضة والريادة فى مجال التجديد :

جمال الدين الأفغانى من الزعماء المصلحين وعبد الرحمن الكواكبى وحسن العطار وعبد الكريم سلمان ورفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى الذى كان يكتب بعض الرسائل الخديوية كما أنه وضع بعض المصطلحات الديوانية (١) ، والامام محمد عبده الذى كان يشرف على تحرير الوقائع المصرية ويراقب كتابة موظفى الدواوين ، والشيخ حمزة فتح الله وكان مفتش أول اللغة العربية فى نظارة المعارف وله فضل يذكر فى اصلاح لغة التعليم وتنقيتها من أوضار العامية والدخيل وعبد الله النديم وأديب إسحاق وإبراهيم اليازجى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وحمزة فتح الله وحنفى ناصف ومصطفى لطفى

---

(١) أعلام العرب : عبد الله فكرى : محمد عبد الغنى حسن ص ١٣٥ .

المنفلوطى وسعد زغلول ومحمد المويلحى ومصطفى صادق الرافعى وعبد العزيز البشرى وعبد العزيز جاويش وقاسم أمين ومحمد حسين هيكل وأحمد فارس الشدياق واحمد لطفى السيد وأمين الرافعى وعباس العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى وطه حسين ... وغيرهم .

نماذج من الرسائل والبيانات والنداءات :

١ ـ كتب عبد الله فكرى وصاية بشخص :

« رافع هذا الرقيم إلى حمى المقام الكريم يذكر أن مسألته طال المدى وبقى فى إنتظارها على مثل روس المدى ، ويشكو من الفقر المدقع ، والضر المضجع ، ما أحرج صدره ، وأخرج عنه صبره ، وأشرف به على اليأس والإستسلام لمخالب اليأس ، ولولا أمل مولاى يبقى على حربائه ، وينشر تذكاره ميت رجائه ، وله فى سيدى ثناء يبارى نفحات الأزاهر ، ويبقى على صفحات الدهر الداهر » .

٢ ـ فرمان تولية لمدير قنا لعبد الله فكرى يخاطبه بلسان الخديوى :

« وأنت أيها المدير الموما إليه ، المعول فى حسن إدارة هذه المديرية عليه قد علمت رغبتنا فى البر والسداد ، واتباع سبيل الرشاد ، فاجتهد فى حسن الإدارة وتيسير أمور الزراعة والصناعة والتجارة ومزيد النمدن والعمارة وتأمين الطرق والجهاد فى جميع الحالات والأوقات ، وصيانة الأجانب المتوطنين فى المديرية والمترددين عليها والأهالى المقيمين بها والواردين اليها وسرعة إنجاز القضايا وفصلها وتوصيل الحقوق إلى أهلها وأداء الأشغال الأميرية وإدارة أمور المديرية على حسب الأصول المعتبرة والقواعد المقررة ودم على الاستقامة والصداقة

التامة والعدل بين الخاصة والعامة فان العدل سبب السلامة والظلم ظلمات يوم القيامة . (١) .

٣ ـ من توقيعات الشيخ حمزة فتح الله لبعض المدرسين على قطع المحفوظات وقد ضرب على بعضها : .. لم أرد بذلك التربيج إلا الرعوى على النشىء ، فان قلا مع حفظ المبنى ، وفهم المعنى خير من كثر يطوح بهم فى موامى المنبت » (٢) .

• • •

٤ ـ أمر موجه إلى الزعيم أحمد عرابى على لسان الخديوى توفيق ٢٠ يوليو ١٨٨٢م :

« أن خروجك من الاسكندرية بعد القتال البحرى الذى جرى فيها من غير أن يصدر لك أمر بذلك ، واستصحابك الجنود إلى كفر الدوار بعد أن خربت الخطوط الحديدية وعطلت البريد وأسلاك البرق ، ومنعك مهاجرى الاسكندرية من العودة اليها ، واستمرارك على اعداد المعدات الحربية ، وعدم قدومك إلينا تلبية لأمرنا .. كل ذلك دعانى إلى إقالتك من وظيفتك ، فأنت معزول إذن منذ الآن من نظارة الجهادية » (٣) .

• • •

---

(١) أعلام العرب : عبد الله فكرى : ص ١٤٧ .

(٢) الوسيط ص ٣٤٢ .

(٣) خلاصة تاريخ مصر الحديث لمحمد الحسينى رخا ص ١٦٠ .

٥ ـ بيان موجه من رئاسة الحزب الوطنى على لسان الزعيم محمد فريد فى تأبين الزعيم مصطفى كامل :

« نهض أحسن الله إليه وعلى وجهه سيماء الهداية ، وفى معارفه قبس التوفيق فأرسل من صدره المملوء حكمة وأملا ويقينا صوتا أول ماهز بناء اليأس فتداعى وانقضت حجارته تباعا .. رفع صوته ، وانقضى قلمه ، وجاهز بمبدئه حين كان الجبن مستوليا على ألسن عقدت من الخوف ، وأقلام أغمدت من الرهبة ومبادىء توارت من الخشية » (١) .

• • •

٦ ـ نداء موجه إلى الأمة المصرية من الزعيم سعد زغلول عقب عودته إلى مصر صدر سنة ١٩٢١م .

« رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيبا فاق كل ترحيب وأعجز وصف كل كاتب وخطيب فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة وباعث من شعورهم الحى ترتعش أعصابهم حماسة وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيهم وعنوان مبادئهم ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا به من مظاهر الفرح الباهر ، تلك الصفات التى تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها وشعرت من قبلات الترحيب التى غمرونا بها بحرارة قلب يخفق فى جسم شعب عظيم وقد اشترك الأموات والأحياء فى أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبه نحو الوطن العزيز وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير فى الطريق الذى سنه الحق القويم وان الشرف والكرامة

---

(١) خلاصة تاريخ مصر الحديث ص ١٩٥ .

والاخلاص لوطننا المقدس لما يوجب علينا طاعة هـذا الأمر الكريم ، والتزام هذا الطريق المستقيم ... (١) .

• • •

٧ ـ كتاب تاريخي موجه إلى شعب مصر على لسان الملك فؤاد بمناسبة إعلان إستقلال مصر عقب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

« إلى شعبنا الكريم .. لقد من الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا ، وانا لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك ، ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال وتتخذ لنفسنا لقب .. صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا « ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية ، وها نحن نشهد الله ، ونشهد أمتنا فى هذه الساعة العظمى أننا لانألوا جهدا فى السعى بكل ما أوتينا من قوة وصدق عزم لخير بلادنا المحبوبة ، والعمل لاسعاد شعبنا الكريم وانا ندعو المولى القدير أن يجعل هـذا اليوم فاتحة عصر سعيد يعيد لمصر ذكرى ماضيها المجيد .. » (٢) .

* * *

---

(١) المنتخب من أدب العرب أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم ، البشرى ، أحمد ضيف ص ١٤٧ :

(٢) خلاصة تاريخ مصر الحديث : لمحمد الحسينى رخا ص ٢١٧ .

الكتابة الرسمية فى عهد الثورة

واتجاهاتهـــا الفنية

لقـد كانت ثورة الثالث والعشرين من يوليو عام اثنـين وخمسين وتسعمائة وألف طليعة للنضال العربى الذى خاض معارك التحرير فى كل وطن عربى فالأمة العربية أمة واحدة تعيش فى منطقة واحدة .. وما دامت المنطقة واحدة وأحوالها واحدة ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد ، والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ، فلماذا تشتت الجهود ؟ » (١) .

وتسلطت الأضواء كلها من وحى هذه الحقيقة على دعائم القومية العربية وأصولها وعبئت لنشر الوعى والإيمان بهـا الطاقات الفـكرية والأدبيـة والفنية فى أجهزة الأعلام المختلفة ووسائلها المتعددة فى الصحف والمجلات والمؤلفـات والإذاعات المسموعة والمرئية والاجتماعات والمؤتمرات والندوات والمسرح و«السينما» وغيرها حتى أصبحت الوحدة العربية حقيقة الوجود العربى ذاته ولم تقتصر مهمة الثورة على تصحيح الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فحسب وفى مصر وحدها بل تعدت مهمة الثورة وتجـاوت ذلك كلـه لتحقق نهضة عامـة شاملة فى شتى المجالات السياسية والاجتمـاعية والاقتصادية والعلميـة والفـكرية والثقافية والأدبية والفنية .

وقد امتد فوق ذلك تأثيرها ليشمل الأمة العربية كلها فى كل هذه النواحى ، ولقد تفاعل الأدب مع الثورة تفاعلا حيويا خلاقا فكما أثر هو فيها واهتم بتوجيه جماهيرها تأثر هو أيضا بها ووجد فيهـا مادة خصبة لأدب حى ثائر تتجاوب به

---

(١) من كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر .

آفاق الوطن العربى الكبير واتجه الأدب الثورى وجهه جديدة فهو أدب واقعى يعيش فى كيان الأمة ويستمد موضوعاته من الوثبات التحررية والتطورات الجذرية الشاملة فى كيان المجتمع مما كان له آثار بعيدة المدى فى تحقيق النهضة الأدبية المعاصرة وخاصة فى مجال النثر الفنى حيث تطورت الكتابة وبلغت شأوا بعيدا فاتسعت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، وتجددت معانيها ، وظهر الابتكار فيها ، وشملها روح جديد سمابها وارتفع إلى أعلى مكانة وأسمى غاية فكانت الكتابة الفنية هى المتداولة فى دواوين الدولة وأجهزتها الرسمية ودور التعليم والمجامع العلمية والثقافية والأدبية، وبالكتابة عولجت شئون الحكم والحياة والعلم والأدب وشئون الاعلام والتوجيه وبواسطة الكتابة استطاع كثير من الكتاب أن يصلوا إلى مراكز سامة فى الدولة حققت لهم الفضل والجاه وجعلتهم فى مكان الصدارة .

وقد اهتمت جهات التعليم وسلطاته التخطيطية بتدريس مادة الانشاء والتعبير إلى جانب دراسة اللغة العربية وآدابها ، وبالتعليم التجارى ومعاهد السكرتارية فروع خاصة للكتابة والمراسلات كما أنشئت بالسلك العسكرى مدرسة «الكتاب العسكريين » لتخريج فئات من العسكريين على هدى وبصيرة بالكتابة الفنية فقد جاء فى رسالة مقررة بمدرسة الكتاب العسكريين « والمقصود بذلك هو الأخذ بيد كل تواق الكمال فى عمله لترقي بفن الكتابة العسكرية إلى المستوى اللائق بجيشنا الناهض »(١) وجاء فى موضع أخر .. والمكاتبة مرآة ناطقة تشف عن شخصية كاتبها من حيث سلامة ذوقه وحسن تعبيره كذا يجب أن يصاغ الموضوع فى قالب أدبى مع ملاحظة الاختصار الذى لا يؤدى إلى بتير الفهم أو التأثير عليه

---

(١) رساله من مقرر الدراسة بمدرسة الكتاب العسكريين ص ٢٨٨ .

وبالاختصار يجب أن يكون مستوى الكتابة العسكرية عاليا إذ أن إرتفاع مستواها فى أى أمة دليل على إتساع العقلية العسكرية فيها ... » [١] .

وإذا كان فى الماضى قد وجد « ديوان الانشاء » الذى يتولى شئون المكاتبات والرسائل والعهود والمنشورات والنظر فى البريد وإرسال السفراء وإدارة أعمال المخابرات والمناظر وإبداء الرأى فى الأمور المتعلقة بالمصالح العامة .. [٢] ، فاننا الآن نرى إدارات متعددة فى الوزارات المختلفة تؤازرها وسائل الاعلام المتنوعة تقوم بكل هذه الأعمال كل إدارات منها وكل جهاز يقوم بعمل خاص من هذه الأعمال فهناك « سكرتارية » رئاسة الجمهورية التى تتلقى الرسائل الخاصة برئيس الجمهورية وتتولى الرد عليها وتوجه الرسائل المختلفة على لسان رئيس الدولة إلى الملوك والرؤساء فى شتى المناسبات كما أنها تقوم باصدار البيانات الخاصة فى الأحداث الهامة على لسان الرئيس وهكذا ، ويلاحظ على هذه الرسائل والبيانات الصادرة عن رئاسة الجمهورية سلامة العبارة ، والتأنق فى التعبير والوضوح والدقة ومراعاة المستوى الرفيع من أدب التخاطب بلا تكلف وبلا اسفاف أوهبوط . وهناك «سكرتارية» مجلس الوزراء والقول فيها كما قدمت فى حدود اختصاصها .. وهناك إدارات والوزارات المختلفة وسكرتارياتها كل منها يقوم بدور المكاتبات والمراسلات وإصدار البيانات وإعداد المناشير المختلفة وفق الحدود المعينة والاختصاصات ويلاحظ على مثل هذه المكاتبات والبيانات غلبة الأسلوب العلمى عليها حيث تعتمد على الفكرة والعبارة وذكر الحقائق والأرقام والاحصائيات بعيدا عن العاطفة والخيال والتأنق والقصد فيها إلى البساطة والوضوح وتدعيمها

---

(١) نفس المرجع ص٢٩٦ .

(٢) صبح الأعشى ص ٥٢ ، ص ١١٤ وما بعدها .

بالأدلة والبرهان وهى تتراوح بين الايجاز والأطناب وفق مقتضيات الأحوال .

ويستثنى من ذلك بعض ما يصدر من بيانات ومكاتبات عن بعض الهيئات فى المناسبات الخاصة والأحداث الهامة حيث يتجلى فيها جودة التعبير والتأنق وسلامة الأداء وتخير الألفاظ وقوة التأثير مثال ذلك ما يصدر عن وزارة الخارجية ومجلس الأمة من بيانات ونداءات فى المناسبات الهامة والأحداث الجليلة . كذلك الحال فيما يصدر عن سكرتارية المؤتمرات والمجالس الفنية فكثيرا ما يصدر عنها بيانات ومكاتبات ومنشورات تمتاز بطابعها الجيد وأسلوبها الرائع وبيانها المشرق وأدائها المتين وحين أنشأت الثورة وزارة الثقافة والإرشاد فى العاشر من نوفمبر عام اثنين وخمسين وتسعمائة والف كانت هذه الوزارة قمة شامخة بالمهام العظيمة الخطيرة الموكولة إليها :

فهى تقوم بالحفاظ على ثقافة الأمة وتدعيم مقوماتها ونشرها بكافة الوسائل ، كما أنها تشرف على أجهزة الأعلام المختلفة وأدوات التوجيه المتعددة من صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية و « مسرح » و « سينما » وقصور ثقافة ومكتبات وإدارات الطباعة والنشر ومؤسساتها .

وتتولى وزارة الثقافة والارشاد قيادة التوجيه القومى والحفاظ على الوعى الجماهيرى ولذلك فهى تقوم باصدار الكتب والمكاتبات والرسائل وتوجيه النداءات والبيانات والمنشورات على لسان الحكومة إلى شتى الجهات كما تقوم بنشر الوثائق والعهود والمواثيق وإصدار البيانات والتصريحات عما يدور فى إجتماع مجلس الوزراء وغيره من الاجتماعات الهامة .

وهكذا يتضح لنا أن وزارة الثقافة بفروعها المختلفة وأجهزتها المتعددة تقوم بأنواع من المهام التى كان يقوم بها ديوان الانشاء فيما مضى ومن هنا يمكننا أن

تتبين بوضوح التأثير الجلى لهذه الوزارة بما أحدثته من ثورة عميقة شاملة فى مجال الفكر والثقافة وبما حققته للجماهير من وعى ورقى وبما أتاحته للأدب من رواج وإزدهار . من ذلك كله يتضح لنا أننا أزاء نهضة شاملة وإتجاهات فكرية عميقة وتطور حيوى خطير بعد صراع مرير بين القديم والجديد بين الجمود والتخلف والوثبة والتطور .

ولقد تأثرت الكتابة الفنية عموما بهذا الصراع وما صحبه من تطور إذ إعتمدت اللغة العربية الصحيحة الحرة الخالية من قيود السجع والبديع وإتخذت أداة للكتابة الفنية مع مراعاة لجانب المعنى ودقة الفكرة والبراعة فى أدائها والاعتماد فيها على حكم العقل السليم والمنطق الصحيح والفكر البصير . أما كتابة السجع والبديع فقد توارت وأن ظلت تظهر من آن لآخر بقلة وعلى إستحياء وذلك كله من آثار جماعة الكتاب الرواد من أدبائنا المعاصرين الذين تأثروا بالإتجاهات الفكرية والتطور الحضارى فحملوا لواء التجديد ورفعوا راية العصيان والتمرد على تلك الأساليب البالية التى قوامها السجع وألوان البديع وأنماط الزخارف مع إهتمام بالغ بالمعانى والأفكار وجودة الأسلوب والدقة فى إختيار الكلمات والألفاظ والعبارات . ولقد إستجابت الجماهير لهذه الحركة التجديدية إستجابة تعكس بحق الآثار البعيدة المدى للاتجاهات الفكرية والحضارية .

غير أننى — فى هذا المجال — لا أغفل الاشارة إلى ناحية خطيرة وهى أن طابع السرعة وتزاحم الأحداث وزيادة المشكلات والأعباء وتعدد مناحى الحياة وتداخلها قد أدى ذلك كله إلى أساليب كثيرة لم تظفر بأدنى عناية وأبسط تنقيح . أساليب بعيدة كل البعد عن الصقل والتجويد ولعلها فى كثير من الأحيان تعتمد على النقل الكامل من اللغات الأجنبية من غير أناة أو تريث وتبصر : أساليب خطف وعجلة وسرعة قد أهملت إهمالا سقطت من جرائه فى كثير من

العيوب والمآخذ التى ينبغى ألا تعتور الآثار الأدبية الممتازة التى يرادلها البقاء ويرجى لها الخلود .

تلك مشكلة من غير شك . مشكلة تواجهنا بآثارها الخطيرة فى لغتنا العربية وأدبنا القومى . وعلى كل غيور أن يتصدى لها ويرفع للحق كلمة فيها ويبدى رأيا فى حلها دون إنتظار وأحسب أنى لن أكون بعيدا عن الحقيقة أو مجانبا للصواب إذا قلت : أن عناصر حل هذه المشكلة تكمن فى أمور أهمها : تعديل المناهج التعليمية وتركيزها وتعميق الثقافة وتأصيلها ، وإزدهار النقد الفنى المتكامل الرشيد وتنمية الذوق الأدبى لدى جماهيرنا ، وتعهد المواهب المتفتحة والوصول بها إلى مرحلة النضج والاكتمال ، وتشجيع الحركة الابداعية الخلاقة المنتجة فى شتى المجالات العلمية والثقافية والأدبية والفنية ومقاومة الأمية الفاشية والإدعائية الانتهازية المسيطرة ... عند ذلك نردد قول الله تعالى : —

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »
(صدق الله العظيم)

* * *

نماذج من الرسائل الرسمية

والبيانات فى عهد الثورة

١ ـ إنذار من مجلس قيادة الثورة إلى الملك فاروق : ١٩٥٢/٧/٢٦ .

« أنه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم ، وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لايطمئن على حياته وأمواله أو كرامته ، ولقد ساء سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا الملك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق ، وزعزع الثقة فى العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى ، فاثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم ... لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش ... » (١) .

٢ ـ منشور دورى عام من مراقبة الشئون الدينية بوزارة الأوقاف لأصحاب الفضيلة أئمة المساجد فى شأن الانتخابات :

« وبعد فقد أرسلنا إليكم منذ حين بتوجيهات فضيلة السيد الوزير التى أراد بها أن تكون المساجد فى معركة الانتخابات بعيدة عن صخب التنافس والدعوة للأفراد .. وانما لهذا النهج الحكيم ترى المراقبة ـ [illegible]

---

(١) عن الصحف الصادرة فى ٧

يتحرى السادة الأئمة فى خطبهم الأسبوعية ودروسهم اليومية البعد كل البعد عن الانتخابات وأن يتخيروا عظاتهم من الموضوعات العامة التى لاتتصل بالانتخابات من قريب أو بعيد ..

أما موضوعات الانتخاب وما يتصل بها من نصح المرشحين أن يلتزموا أساليب الوقار والمودة ونصح الناخبين أن يجعلوا أصواتهم أمانة يؤدونها لمن يرونه أرضى لله ورسوله ومصلحة الناس ذلك كله وما فى معناه وما يتعلق به لا داعى للتعرض له اطلاقا لا عمدا ولا استطراد سدا لذرائع الفتنة وبعدا عن أسباب التأويل ومظنات التحريف وتوقيا لكل ما يثير المشاكل من كلمة ناخب وانتخاب ونحوها ... »(١).

• • •

٣ — برقية من الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرئيس الجزائرى هوارى بومدين يهنئه فى مناسبة عيد استقلال الجزائر .

« فى هذا اليوم الذى تحتفلون فيه بعيد الاستقلال ويستعيد فيه شعب الجزائر الشقيق ذكرى انتصاراته وأمجاده الثورية . يسعدنى أن أبعث إليكم وإلى شعب الجزائر باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة وباسمى باصدق التهنئة مؤكدا تقديرنا العميق للكفاح الرائع الذى خاضه شعب الجزائر من أجل تحقيق حريته وإستقلاله وإعلاء إرادته ومضيفا لثورته ونضاله وانتصاره دفعة حيوية ودافقة للثورة العربية ولكرامة الأمة العربية وإذا كانت الأمة العربية تخوض اليوم اعتى

---

(١) منشور صادر من المراقبة العامة للشئون الدينية بتوقيع البهى الخولى من غير تاريخ .

معاركها ضد قوى الاستعمار والصهيونية فان التضامن بين أبناء هذه الأمة والتلاحم بين شعوبها سوف يضع فى خدمتها خلاصة تجاربها الثورية وقصارى طاقاتها وقواها ليكون انتصارها بعون الله هو النتيجة الحتمية الوحيدة لهذه المعركة تحيـة إليكم وإلى شعب الجزائر يوم عيد استقلاله مع كل تمنياتى لكم بالصحة والسعادة وللشعب الشقيق بالتقدم والرفاهية ... (١) .

• • •

(٤) بيان من الرئيس جمال عبد الناصر إلى الأمة فى ذكرى ٥ يونيو ١٩٦٧ . وجاء فيه :

« لقد كان حرصى شديدا على أن ألتقى بكم اليوم فى ذكرى مرور عام على تجربة عشناها ، وعاشتها أمتنا العربية كلها بالمرارة والألم العظيم ومهما كان ما نشعر به جميعا فى هذا اليوم فلقد أحسست بحاجتى إلى لقائى معكم أفضى إليكم فيه ببعض خواطرى واستمد منكم على المسئولية الكبيرة عونا وسندا ثم تكون الذكرى عهدا جديدا نؤكد به فوق الاحزان كلها وفوق الصعاب ايماننا وتصميمنا على استعادة الحق كاملا وعلى السير فى طريقه إلى النهاية .

لقد مر عام وأصارحكم أيها الأخوة أننى لم أكن أتصور أنه سوف يكون بمقدورنا نفسيا أن نعيش أياما مع العذاب الذى خلفته لنا النكسة ومع آثارها ، ولقد كنت أتصور أن أجيال أمتنا المعاصرة كلها لا تستطيع إنسانيا أن تنتظر ،

---

(١) جريدة الأخبار العدد ٤٩٩٩ بتاريخ ٥ يوليو ١٩٦٨ م - الصفحة الأولى .

وأن الاندفاع إلى أى شىء مهما تكن عواقبه أهون لديهـا من أى احتمال آخر لكن هذه الأمة العربية العظيمة بقدرتها على الارتفـاع فوق المحن علمتنا جميعا درسا فى شجاعة الصبر وفى ثورية الصبر .

وبالنسبة لى فإن معنى الدرس كان واضحا ليس المهم هو حساب الأيام ولكن الأهم هو حساب النصر على أن الشرط الذى أراه ضروريا لكرامة هذا الدرس ولتكريمه هو ألا تكون الأيام ضائعة وألا تتسرب ساعاتها من أيدينا فراغا .[١] .

٥ ـ بيان فى الجلسة الختامية للمؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى الدورة الثالثة وقد ألقاه السيد / أنور السادات رئيس اللجنة السياسية وقد جاء فيه : [٢] .

« أن الاصرار العربى على رفض الهزيمة والمضى فى طريق النضال وإحراز النصر الذى أعلنته جماهير شعبنا العربى فى يومى التاسع والعاشر من يونيو سنة ١٩٦٧ هذا الاصرار قد إزداد عمقا وصلابة بفضل الصمود العسكرى والسياسى والاقتصادى والفكرى الذى صنعته جماهير شعبنا المناضل الرابضة على خط النار فى مواجهة العدو والعاملة فى المزراع والمصانع والمكاتب وفى كل ميادين الفكر والأدب والعلم والفن وإذا كان العدو ما زال يتشبث بكل ما احتل من أرض لتحقيق مطامعه التوسعية العدوانية بتأييد ودعم ومساندة لا حدود لها من قوى الصهيونية والامبريالية العالمية وما زال يرفض الخضوع لقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة وما زال يحاول تثبيت خط وقف إطلاق النار يهدف تحويل خطوط

(١) الجرائد الصادرة صبيحة ١٩٦٨/٦/٦ .
(٢) جريدة أخبار اليوم الصادرة صباح السبت ٢٦ يوليو ١٩٦٩ الصفحة الرابعة العدد (١٢٩٠) السنة الخامسة والعشرون .

المواجهة الراهنة إلى مكتسبات دائمة ومستقرة يبدأ منها التباحث فى حل شامل للنزاع ويفرض منها الاستسلام على الأمة العربيه من دوافع العدوان فإن العدو بإصراره على هذا الموقف المتعنت إنما يدفع بالموقف المتفجر فى المنطقة إلى أقصاه ويدفع بالنضال العربى إلى مرحلة التصميم على القتال من أجل التحرير أن القتال من أجل استرداد أرضنا المحتلة هو حقنا بل هو واجبنا وهو قدرنا ..»

• • •

٣ ـ وهذه برقية طريفة بعث بها عظمة الشيخ زايد بن سلطان حاكم أبوظبى إلى الرئيس الأمريكى نيكسون فى مناسبة هبوط أول إنسان على سطح القمر .. وجاء فيها (١):

.. يسعدنا فى هذه اللحظات التاريخيه أن نهنىء فخامتكم والشعب الأمريكى العظيم .. والإنسانية كلها بالحدث الانسانى الضخم الذى حققته « أبوللو ١١ » وأن نجاح الانسان فى الوصول إلى القمر هو نجاح للجنس البشرى كله ونحن نأمل أن يستطيع الانسان الذى وصل إلى القمر أن يصل إلى حل مشاكله على الأرض وأن تكون هذه إشارة لاستتباب الأمن والسلام فى العالم عموما وفى الشرق الأوسط بصفة خاصة .

• • •

٤ ـ وهذه رسالة عميقة وجهها السيد الرئيس إلى الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية فى مناسبة الجريمة البشعة النكراء التى أقدمت فيها إسرائيل على إحراق المسجد الأقصى :

---

(١) جريدة الأهرام الصادرة صبيحة الجمعة ١٩٦٩/٧/٢٥ العدد ٣٠١٧٧ السنة (٩٥) الصفحة الثامنة .

. . مع كل مشاعر الغضب الجارف والحزن العميق والآلام الروحية والمادية التى تعصف فى قلوب أمتنا بأسرها من المحيط إلى الخليج فإننى لم أجد من أتوجه إليه هـذه اللحظة بخواطرى غير القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة ومن ورائها القوات المسلحة لشعوب أمتنا العربية وكل قوى المقاومة الشريفة التى فجرتهـا التجربة القاسية التى أراد الله بهـا عز وجل أن يمتحن صبرنا وأن يختبر صلابتنا .

أنهم فى معركتهم القادمة ليسوا جند أمتهم فقط ولكنهم جند الله حماة أديانه وحماة بيوته وحماة كتبه المقدسه .. أن معركتهم القادمة لن تكون معركة التحرير فحسب ولكنه أصبح ضرورياً أن تكون معركة التطهير أيضا . . .

أن أنظارنا تتطلع الآن إلى المسجد الأقصى فى القدس وهو يعانى من قوة الشر والظلام ما يعانى ، ومهما كان ما نشعر به فى هذه اللحظات فان دعاءنا إلى الله عز وجل مؤمنا وخاشعا هو أن يمنحنـا الصبر والمعرفة والشجاعة والمقدرة لكى نزيح الشر والظـلام ولسوف تعود جيوشنا إلى رحاب المسجد الأقصى ولسوف تعود القدس كما كانت قبل عصر الاستعمار الذى حول بسط سيطرته عليها منذ قرون حتى أسلمها لهؤلاء اللاعبين بالنار . . . (١) .

. . .

(١) الجرائد الصادرة صباح الأحد ١٩٦٩/٨/٢٤ .

خاتمة

وبعد .. فقد كانت هذه نهاية المطاف مع الكتابة الرسمية الديوانية فى شتى العصور بملامحها المميزة وخصائصها الفنية وسماتها البارزة وإرتباطها بالإتجاهات الفكرية والحضارية تلك الحقيقة الهامة التى تأكدت بالبحث وعمق مفهومها بالتتبع والدراسة والتى تترتب عليها آثار بالغة بعيدة المدى فى المجالات الأدبية والدراسات النقدية .

وفى محاولة لإلقاء بعض الضوء على النثر الفنى عند العرب أشرت إلى أن العرب أمة صناعتها الكلام ومفخرتها البيان وأنه قد كان لهم قبل الاسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم وحدة تفكيرهم لكنه ضاع فيما شاع من تراث هذه الفترة البعيدة الموغلة فى القدم . كما تناولت مفهوم الكتابة عند الأدباء حيث كانوا يقصدون بها صناعة إنشاء الكتب والرسائل وهى تعد من أشرف الصنائع وأرفعها كما تعد لازمة لكل أمة متحضرة ذات دولة منظمة ودواوين متعددة ولقد كان ذلك موفورا فى ممالك التبابعة ومأثورا عن ممالك المناذرة والغساسنة فى العصور الغابرة ، وبقيام دولة الاسلام برز كيانها وتدعمت أركانها حين إشتدت الحاجة إليها وإتضحت أهميتها مما دعا إلى تدوين الدواوين وعلى رأسها ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء وفى حلقات متصلة مترابطة تتبعت الكتابة الديوانية فى عصر صدر الاسلام الذى إستخدمت فيه الكتابة إستخداما تجلى فيه العمق والوعى والدراية والتركيز وشاعت فيه روح الجد والبعد عن السطحية والمظهرية وهذه طبيعة الدعوة الاسلامية وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها وفى العصر الأموى الذى إرتقت فيه الكتابة رقيا ملحوظا بما جد من أمور وبما إستحدث من علوم وفنون وبما تسرب من الفكر الأجنبى وبما تفتحت عليه الأعين من تراث الأقدمين

فكان أن نمت الكتابة نموا واسعا وقد مرت بطورين تبعا لمسار الحركة الفكرية والإتجاه الحضارى ، فقد إمتازت باليسر والوضوح والبساطة والإيجاز فى الطور الأول . ومالت إلى التأنق والصنعة والأطناب وإشراق البيان فى الطور الثانى بفضل ما تهيأ لها من كتاب بلغاء كان على رأسهم عبد الحميد بن يحيى الكاتب.

وفى العصر العباسى عصر الحضارة والإزدهار عصر الامتزاج الثقافى والنهضة العلمية والتطور الفكرى نجد أن الكتابة قد إزدهرت إزدهارا عظيما ففنيت أساليبها وفصحت وحسن تخير الألفاظ والعبارات وإتتفت الألفاظ المتوعرة ودققت الفكرة وقويت المعانى وقد كان ذلك فى العهد الأول منه أعنى عهد نفوذ الخلفاء ، بعد ذلك أمكننا أن نلحظ بوضوح أن الصنعة فى النثر الفنى عموما والكتابة الديوانية بوجه خاص قد تتابعت فى موجات متلاحقة من تأنق فى التعبير وروعة فى التصوير وتفنن فى السجع ومراعاة للازدواج وبراعة فى الجناس وميل إلى المطابقة والمقابلة وتهافت على التورية وإهتمام بالتضمين والاقتباس وإستخدام للاشارات التاريخية والمصطلحات العلمية ، وقد تأكد بالبحث أن ذلك يرتبط إرتباطا وثيقا بالحياة العباسية التى كانت تقوم على الترف والزينة والثراء والتطور الفكرى والعلمى والرقى الثقافى والامتزاج بالأمم الأخرى .

ولقد تناولت مع ذلك بالبحث بعض الأعلام من رواد الكتابة الفنية فى العصر العباسى بعهديه الأول والثانى : ابن المقفع ، الجاحظ ، ابن العميد ، القاضى الفاضل .

وفى عصر المماليك والعثمانيين عصر الصراع والاضطراب والحروب وما تبع ذلك فى العهد العثمانى من تأخر وجمود فى ذلك العصر كانت الطريقة المتبعة فى الكتابة الديوانية وفى العهد المملوكى بالذات طريقة القاضى الفاضل التى أساسها المعانى الخيالية وإلتزام السجع والجرى وراء الزخارف وتكلف البديع وأن

أدى ذلك إلى الغموض والتعقيد وضياع الأفكار والمعانى وفى العهد العثمانى أخذ شأن الكتابة فى الاضمحلال حين غلبت اللغة التركية وساءت الأحوال وضعفت الثقافة وسادت الجهالة وتفشت الأمية وظهر العجز واضحا للعيان وراحت البلاد فى ظلام طويل وجمود مرير وفى الأندلس بينت أن الكتابة الديوانية قد مرت بأطوار ثلاثة : طور الفطرة والسذاجة ، وطور القوة والازدهار حين شهدت البلاد عهدا من الازدهار الحضارى التقدم العلمي والرقى الأدبى والنضج الفنى والثقافى ، وطور ثالث أخذت فيه الكتابة تحيط نفسها بقيود التصنع والزخرف والتكلف إلى أن وصلت إلى مرحلة الجمود والانهيار تماما كما كان عليه الحال فى المشرق .

وفى مصر كانت فترة الازدهار متكاملة متعاقبة فى عهود ثلاثة لدول عظيمة قوية لها وزنها ولها مجدها .. الدولة الطولونية والدولة الأيوبية حيث عمت النهضة ونشطت الحركة العلمية وشاع الروح الفكرى والفلسفى وإزدهرت الحياة الاجتماعية إزدهارا عظيما ظهرت آثاره فى كل مجال وتعددت شواهده رآياته فى كل ميدان .

وفى عصر النهضة الحديثة عصر الصحوة واليقظة مرت الكتابة الرسمية الديوانية بأطوار : ففى عهد الحملة الفرنسية وصلت الكتابة إلى نهاية ما إنتابها من ضعف وضيق وهزال غرضا ومعنى وأسلوبا وفى عهد محمد على جدت بعض العوامل التى كان لها أثر بين فى إنهاض الكتابة ومع ذلك فقد ظل أسلوب الكتابة ركيكا بعيدا عن الصيغة الأدبية والنزعة الفنية مع تقيدها بأنواع من البديع والسجع إستجابة لدواعى التقليد مع غلبة العامية وشيوعها وفى عهد اسماعيل تعددت أسباب رقى الكتابة على إختلاف أنواعها فأرتقى النثر الكتابى وتهذبت عبارته وتخلصت شيئا فشيئا من قيود البديع والسجع وكثرت معانيه وتجددت وإنصرفت عناية الكتاب إلى إلى الإبتكار فى المعانى وإجادة أدائها .

وفى فترة الاحتلال هبطت الكتابة الانشائية فى الدواوين وتولى العمل فيها فئات من الناشئين لم تنل قسطا من التعليم والمعرفة باللغة وأساليبها بل كان منهم من يتظرف بالجهل بالعربية ويتفاخر بمعرفة الأجنبية وحدها . ومع ذلك فقد كانت هناك قلة من الدواوين الممتازة فى الدولة كان لها سمت الأصالة والقوة والإبداع والفضل فى ذلك يرجع لبعض الشخصيات الأدبية التى عملت فى الحقل الحكومى الرسمى أو فى المجال الحزبى أو فى الميدان الصحفى أو كانوا على إتصال بالعمل الوطنى والاصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى فقد كان لهؤلاء أثر عظيم فى النهضة الأدبية وإزدهار الكتابة الفنية وتماسكها والنهوض بها رغم كل الظروف الصعبة التى أحاطت بها . وفى عهد الثورة تعددت أسباب النهضة وعوامل الرقى فى شتى المجالات فتطورت الكتابة وبلغت شأوا بعيدا وإتسعت أغراضها وتنوعت أساليبها وظهر الابتكار والتجديد فى معانيها . وبالكتابة عولجت شئون الحكم والحياة والعلم والأدب وشئون الأعلام والتوجيه بلغة عربية صحيحة حرة خالية من قيود السجع والبديع مع مراعاة الجانب المعنى ودقة الفكرة والبراعة فى أدائها وذلك كله أثر من آثار النهضة الشاملة والاتجاهات الفكرية العميقة والتطور الحيوى الخطير . الأمر الذى أكدته بحق تلك الاستجابة الجماهيرية السريعة لهذه الحركة التجديدة الشاملة .

وفى ختام البحث أشرت إلى ناحية خطيرة أدت إليها طبيعة الحياة السريعة وتعدد مناحيها وزيادة المشكلات والأعباء فيها وتجسدت بوضوح فى بعض أساليب الخطف والعجلة البعيدة كل البعد عن مظاهر الصقل والتجويد الساقطة فى كثير من المآخذ والعيوب بفعل ما تعرضت له من إهمال شديد نحاها عن الآثار الأدبية المعتمدة وهوى بها إلى الحضيض . وقد أوضحت أن مزيدا من الجهود لا بد أن يبذل للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة والاحتفاظ للغتنا العربية بأدبها الرفيع .

وكان الأمر فى رأيى ينحصر فى بعض العناصر التى ينبغى أن تؤخذ أساسا للاصلاح ومن أهمها تعديل المناهج التعليمية وتركيزها وتعميقها ونشر الثقافة الجماهيرية وتأصيلها وتنمية الذوق الأدبى العام وإزدهار النقد الفنى المتكامل الخلاق وتشجيع الحركة الابداعية المنتجة فى شتى المجالات وتعهد المواهب المتفتحة والوصول بها إلى مرحلة النضج والاكتمال .

وهكذا أصل إلى نهاية بحثى عن « الإتجاهات الفكرية والحضارية وأثرها فى الكتابة الرسمية الديوانية » وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع بعض حقه .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ..

دكتور/ عبد الله حسين على سليمان